أدب الأطفال في سورية

(نشأته وتطوره)

بقلم:
عيسى فتوح

ظهرت كتب الأطفال، أول ما ظهرت، في القرن السابع الميلادي باللغة اللاتينية، وكان هدفها تعليم الدين ومبادئ الكتابة، لكن أدب الأطفال لم يتقدم بخطا سريعة إلا بعد اختراع المطبعة. ففي عام ١٤٨٤ طبع كاكستون أول كتاب للصغار، وهو خرافات وأمثال الحكيم اليوناني ايزوب... وحتى نهاية القرن الخامس عشر لم يكن هناك إلا كتيبات أغان، ووصف ألعاب للحفلات. ثم ظهرت الألواح، وهي صحف ملصقة على خشب في إطار من قرن الخرتيت، ولذلك عرفت بكتب القرن، وهي عبارة عن الأحرف الأبجدية والأرقام والصلوات ليتعلمها الصغار، ثم أصبحت من الكرتون، وأخيراً من الورق، وظلت تضاف إليها مواد أخرى غير تعليمية حتى القرن الثامن عشر الذي شهد نهضة في تأليف كتب الصغار وطبعها. ويعد جون نيوبري، المؤلف والناشر، أول من أصدر كتباً مصورة للأطفال على ورق ممتاز، وبالرغم من أن بعض قصص شكسبير، ورحلات غوليفر، وروبنسون كروزو أعدت في طبعات خاصة للصغار، إلا أن الهدف منها كان تعليمياً.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، وبفضل ظهور كتاب "إميل" لجان جاك روسو، ونظريات جون لوك في التعليم ازدهرت مدرسة ممتازة لإنشاء كتب تعليمية، بالغت في هذا المجال، ولمعت أسماء مؤلفين معروفين مثل ماريا ادجوورث، ووليم بليك الذي ألف كتاب "أغاني البراءة والتجربة" وأجرى الحكمة فيه على لسان الأطفال.

ويعد القرن التاسع عشر، ولا سيما نصفه الثاني، العصر الذهبي لأدب الأطفال، إذ عكف الأخوان غريم على جمع القصص الشعبية

الألمانية مدة ثلاثة عشر عاماً، كما ظهرت مجموعة أخرى بالألمانية في سويسرا بعنوان "الأسرة السويسرية روبنسون" عام ١٨١٣، ثم كتب القاص الدانماركي هانس كريستيان أندرسون طائفة كبيرة من القصص، استلهم بعضها من الأدب الشعبي، وبعضها الآخر من حكايات كتاب "ألف ليلة وليلة"، ونشر الكاتب الإنكليزي روبرت لويس ستيفنسون قصة رومانسية تدعى "جزيرة الكنز" على حلقات في مجلة الأطفال،ولما جمعها في مجلد واحد لاقت رواجاً كبيراً.ولا يجوز أن نغفل في هذا المقام العمل الذي قام به تشارلز وماري لام اللذان لخصا جميع قصص ومسرحيات شكسبير، وأعداها إعداداً جيداً للأطفال.

وفي القرن التاسع عشر دخل هذا الميدان عدد من أشهر الكتاب والمؤلفين مثل: تشارلز ديكنز، وجون رسكين، ورديارد كبلنغ، وليون تولستوي... وظهرت كتب ملونة، وتخصص الفنانون في رسوم الأطفال لتزيين الكتب الموجهة لهم، وتنافسوا في حسن الإخراج، وجمال التنفيذ والتغليف. وما إن أطل القرن العشرون حتى كان في وسع الأطفال أن يطوفوا العالم، ويجوبوا البحار، ويحلقوا في السماء، ويعرفوا أسرار العلوم الدقيقة بواسطة كتبهم المبسطة المشوقة.

واتسع الأفق فأُصدرت لهم المجلات المتخصصة، وأنتجت الأفلام الملونة الرائعة، وأخذ الأطفال في كل بقعة من بقاع العالم يتعارفون من خلال قصصهم وحكاياتهم، وأنشئت لهم الهيئات والمؤسسات التي تُعنى بأدبهم، كما عقدت عدة مؤتمرات لتطوير تأليف كتبهم، وإخراجها بشكل جذاب وأنيق.

-٢-

أما الأدب العربي فلم يعرف التأليف للأطفال إلا في زمن متأخر جداً، ولا نكاد نلمح في تاريخه الطويل إلا إشارات عابرة للأطفال، فقد كانوا يعيشون على هامش الأسرة، لأن شظف الحياة كان يصرف الكبار عن العناية بهم، وتوفير الحياة الكريمة لهم، يعيشون في الأسرة كما تعيش الحملان في القطيع، وقد يشتدون في معاملتهم لكي يصنعوا منهم رجالاً قادرين على تحمل الحياة القاسية الصعبة.

إن ما ذكر عن الأطفال في الأدب العربي حتى بداية عصر النهضة الحديثة، لا يتعدى الإشارات العابرة التي تصف مكانتهم في الأسرة، ومحبة الوالدين لهم، وهي إشارات سطحية عارضة لا يمكن أن نعدها من أدب الأطفال في شيء، لأنها وردت في متون القصائد، ولم تكتب خصيصاً لهم، أو توجه إليهم، كقول الشاعر الإسلامي حطان بن المعلى:

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبتِ الريحُ على بعضهمْ لامتنعت عيني من الغمْض

-٣-

لم تظهر بوادر الكتابة الجدية للأطفال في الأدب العربي إذن إلا في مطلع القرن العشرين وفي مصر بالذات، حينما حاول الشاعر أحمد شوقي نظم خرافات مشهورة على ألسنة الحيوانات من ايزوب اليوناني، أو لافونتين الفرنسي أو من كليلة ودمنة، أو من مطارح خياله، وقصد منها عظة الحكام، وتهذيب العامة مع شيء من الهزل. قال في مقدمة الشوقيات:

"وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير... وكنت أتمنى لو وفقني الله، لأجعل لأطفال المصريين مثل ما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة، منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم". ولا ريب في أن مغزى بعض هذه الحكايات سياسي، يرمي إلى انتقاد الحكام، أما بعضها الآخر فيرمي إلى أغراض اجتماعية... فحكاية "ملك الغربان وندور الخادم" تمثل الرجل القوي المغرور بنفسه، لا يريد أن يسمع نصيحة من هو أقل منه قوة، ثم إنه يقع في مأزق يحتاج إلى مساعدة الذين نصحوه بالأمس، فإذا هم عاجزون عن مساعدته، بعد أن فاتت الفرصة، أو شامتون به.

أما حكاية "الديك والثعلب" فيدور مغزاها على الماكر الذي يريد أن يخدع الناس، ولكن يظل بينهم من لا تنطلي الحيلة عليه، يقول فيها:

برز الثعلبُ يوماً
في ثياب الواعظينا
فمشى في الأرضِ يَهْدي
ويسبُّ الماكرينا
فأتى الديكَ رسولٌ
من إمامِ الناسكينا
عرض الأمرَ عليه
وهو يرجو أن يلينا
فأجاب الديكُ عذراً
يا أضلَّ المهتدينا
بلّغِ الثعلبَ عني
عن جدودي الصالحينا
أنهم قالوا وخيرُ ال
قولِ قول العارفينا:

مخطئ من ظنَّ يوماً
أن للثعلب دينا

ومن حكاياته الجميلة حكاية "اليمامة والصياد"، وهي تمثل الغبي الثرثار الذي يمكنه أن ينجو مما يحيط به من أخطار إذا ظل ساكتاً، لكنه يتكلم فيلفت إليه أنظار أعدائه ومنافسيه، فيؤدي ذلك إلى هلاكه:

يمامةٌ كانت بأعلى الشجرهْ
آمنةً في عشها مستترهْ
فأقبل الصيادُ ذاتَ يومِ
وحام حولَ الروضِ أيَّ حومِ
فلم يجدْ للطيرِ فيه ظلا
وهمَّ بالرحيلِ حين ملا
فبرزت من عشِها الحمقاءُ
والحمقُ داءٌ ما له دواءُ
تقول جهلاً بالذي سيحدث
"يا أيها الإنسانُ عمَّ تبحث؟"
فالتفت الصيادُ صوبَ الصوتَ
ونحوه سدَّد سهمَ الموتَ
فسقطت من عرشِها المكينِ
ووقعت في قبضةِ السكينِ
تقولُ قولَ عارفٍ محققِ
"مَلَكْتُ نفسي لو مَلَكْتُ منطقي"

ولشوقي قصائد تعليمية وتهذيبية أخرى كقصيدته في جدته، وقصيدته في المكتب، لكن محاولة شوقي تظل صلبة وعرة، يسودها الجفاف في معظم الأحيان، لأنه كتب للصغار بلغة الكبار، ونسيجهم وتعبيرهم، ومع ذلك يبقى الرائد الأول الذي أدرك خطر هذا الموضوع وجلاله، ودق بابه الموصود جاداً، ودنا من عالم الأطفال الذي أهمل حقباً طويلة، فولجه في كثير من المحبة والألفة.

ويحذو حذو شوقي الشاعر المصري محمد الهرّاوي الذي نظم ثلاثة دواوين صغيرة مصورة لطلاب المدارس الابتدائية سماها "سمير الأطفال" كانت الغاية منها تعليم الصغار الإنشاء والإملاء وتقويتهم في المطالعة، وتمرينهم على الحفظ، قررتها وزارة المعارف المصرية في مدارسها عام ١٩٣٠، وقد تحدث في الجزء الثاني منها عن: الطبيب والمحامي، والخطيب، والهر المرائي، ومحبة الوالدين، وحصالة النقود، والساعة، والمذكرة، والمنظار، والباخرة، والمسرة (الهاتف)، وآلة التصوير، والحاكي (الفونوغراف)، كما ضمنه بعض الأناشيد: كأنشودة التلميذ، ونشيد رأس السنة، والعيد، وشم النسيم، والنيل، وكلها تخلو من عنصر الحكاية، إلا قصيدة "الهر المرائي" التي تبين لنا أن المنافق يستحيل عليه أن يخفي ما يدور في نفسه، فيبدو ذلك جلياً في مقلتيه اللتين تفضحانه:

جاء "إسماعيل تبدو
بسمةٌ في شفتيه
حاملاً صحنَ طعامٍ
ورغيفاً في يديه
فسرى للصحن نفحٌ
جذب الهرَّ إليه
قام هذا وتمطّى
ومشى في قدميه
حانيَ الظهرِ طروباً
رافعَ الذيلِ عليه
فانحني الطفلَ وألقى
جملةً في أذنيه:
"يا صديقي أنا أدري
ما الذي تسعى إليه
عبثاً يخفي المرائي
ما بدا في مقلتيه"

ولا يختلف الجزء الثالث في شيء عن الثاني، فقد تحدث فيه عن: الكمنجة، والهدية، والمحكمة، والشقاق مجلبة الفشل، والشحاذين، والأهرام، وأبي الهول، ودار الآثار، ودار الكتب، والتمثيل، والخيالة (السينما)، والآلة الكاتبة، بالإضافة إلى: نشيد الفلاح، ونشيد الكشافة، ولم يكن يهدف من وراء ذلك كله إلا تبصير الطفل بما يحيط به من أشياء وتعريفه بها، وهي أشبه بدروس تعليمية صرف، لا تغذي خياله، ولا تشده إليها، لأنها تقريرية خالية من عنصري القص والتشويق... وتقتصر على تقديم المعرفة بطريقة مسطحة جامدة، ولعل قصيدة "الشقاق مجلبة الفشل" التي تدور حوادثها حلو ثعلبين وفريستهما، هي القصة الشعرية الوحيدة في الجزء الثالث. وملخصها أن ثعلبين اقتتلا على فريسة، وادعى كل منهما أنها له، واشتد الخصام بينهما، حتى انقض صقر من السماء فحملها وطار بها بعيداً، فندما وتلاوما، ولكن ما فائدة الندم والعتاب بعد فوات الأوان؟:

أنبأنا محدثٌ
فيما روى من مثلِ
قال: "رأيت ثعلبي
نِ من وحوشِ الجبلِ
جاعا فجاءا يسعيا
نِ لالتماسِ المأكلِ
فأبصرا فريسةً
تسربت من منزلِ
فانطلقا وراءها
وأنشبا في المقتلِ

فقـال كـلٍ لأخيـه: خـلّ عنهـا فهـي لـي"
واقتـتلا وخلّفـاهـا عُرْضـةً فـي السـبل
فـانقضَّ صـقرٌ ومضـى بهـا قريـرَ المُقَـل
فانتبهـا، فأبصـراهـا فـي السـماكِ الأعـزل
فنـدما، وانقلبـا إلـى حـديثِ العـذّل
هيهـاتَ لا يجـديهما بعـد ضَـيَاعِ الأمـلِ
"إن الشـقاقَ دائمـاً مجلبـةٌ للفشـل"

أما قصيدته في "الكمنجة" فلا تخرج عن كونها قصيدة تعليمية، لا تثير في نفس الطفل أي انفعال أو شعور، ولا تحرك فيه ساكناً، اللهمّ إلا ما تبعثه أنغامها في النفس من الأنس والبهجة، بعد الوحشة والاكتئاب:

أعـزف بالكمنجـة بعـد انتهـاءِ الـدرس
فهـي التـي تبعثنـي مـن وحشـة لأُنْـس
بـالقوسِ تشـدُو طربـاً وبالبنـانِ الخَمْـس
تجلـو النهـى مـن صـدأ تطلقهـا مـن حَـبْس
عـزفُ الكمنجـه نغـمٌ فيـه سـرورُ الـنَفْس

ومثلها قصيدة "الشحاذون" التي تعلم الصغار الأريحية والكرم، وتحثهم على التصدق على الفقراء، وتحذرهم من تضليل الدجالين الذين يتظاهرون بالفقر والمرض، ليستدروا أكف المحسنين، بعد أن تحول الاستعطاء عندهم مهنة رائجة، ولجأ إليها كل متعطل عن العمل لأنها مورد عذب:

أعـط الفقـراءَ علـى ثقـة واحـذرْ مـن يسـألُ فـي السُّبُلِ
فكثيـرٌ مـنهمُ مختلـقٌ وكثيـرٌ مـنهمُ ذو حيـل
كـم لـصٍ مـنهمُ مسـتتر بـالفقر تظـاهرَ والعلـلِ
وجـد الإحسـانَ يسـوق لـه رزقـاً فتعطّـل مـن عمـل
ومضـى يسـتعذب مـوردَهُ وتعـود أخـلاق السـفل
إن تعـطِ السـائلَ بُغْيَتَـهُ تكثـرْ فـي النـاسِ مـن الهَمَـل

-٥-

إلا أن كامل كيلاني يبقى الكاتب الأول الذي ترك بصماته الواضحة على أدب الأطفال في مصر، ويليه كل من: محمد عطية الأبراشي، ومحمد أحمد برانق، وحسن جوهر، ورفعت النجدي، وعادل الغضبان، ومحمد سعيد العريان، ومتبولي عطية، وعبد الحميد الطرزي... أما في ميدان الترجمة فنذكر: إبراهيم عزوز، وأحمد قابيل، وأمين العطار، وأمينة السعيد وغيرهم.

لقد ألف كامل كيلاني وترجم واقتبس ولخص مئات القصص، ونشرها تحت أسماء: "قصص فكاهية، قصص من ألف ليلة وليلة، قصص هندية، قصص شكسبير، أساطيرمن العالم، أشهر القصص، قصص علمية، قصص

عربية، قصص تمثيلية...". وتوخى أن يختار أحسن القصص وأروعها وأجملها، شارحاً كل كلمة يظن أنها فوق مستوى الطفل.

أما محمد عطية الأبراشي فقد بلغ مجموع ما نشره في عشر سنوات من ١٩٦٠-١٩٧٠ مئة وأربعة كتب بين مؤلف ومترجم، اختار لها صفوة القصص من شرقية وغربية، وراعى فيها ميول الأطفال ورغباتهم وتفكيرهم وخيالهم، حتى إنه كان يقرأ الكتاب القصصي الكبير، فلا يختار منه بالرغم من تعدد قصصه إلا قصة واحدة، وقد نوع في اختياره، فأتى بالقصص الخيالية، والواقعية، والاجتماعية، والخلقية، والعلمية، والأدبية، والجغرافية، والتاريخية.

إن إي كتاب نشره في سلسلة "المكتبة الحديثة للأطفال" يتصل بحياة الطفل كل الاتصال، ويرغبه في القراءة، ويشوقه إلى الاستمرار فيها، فما إن يبدأ أول قصة حتى يستهويه وضوحها، وسهولة لغتها، وجمال أسلوبها، وحرصها على المثل العليا في النواحي الخلقية والاجتماعية والعاطفية، فيمضي إلى نهايتها، وقد راعى فيها جميعاً سهولة اللغة، وجمال الأسلوب، وشرح الكلمات اللغوية الصعبة، كما وضح بعض القصص بالصور التي تعين على فهمها، فيكتسب الطفل منها دقة الملاحظة، وجمال الذوق، وكان يضع في نهاية كل قصة مجموعة من الأسئلة للإجابة عليها، كما يضع طائفة من الأجوبة، يطلب السؤال عنها.

لا يمكن سرد أسماء جميع كتب الأطفال، أو السلاسل المتنوعة التي صدرت فيها، في مصر، فقد سبقتنا في هذا المجال بأشواط واسعة، لكنني أحيل من يريد التوسع إلى العدد ٤٨ من مجلة "الكتاب العربي" الخاص بكتب الأطفال التي صدرت ما بين ١٩٦٠-١٩٧٠ وهو يحوي دراسة شاملة لها، مع قوائم علمية بإنتاجها، ولا شك في أن كتباً كثيرة صدرت قبل هذين التاريخين وهذا الفيض في كتب الأطفال في مصر(١) يشعرنا بالتقصير أمام فلذات أكبادنا، ويدعونا إلى تدارك هذا النقص الكبير، وسد الثغرة التي فتحت في أدبنا العربي على مر العصور.

-٦-

نشأ أدب الأطفال في سورية في ظل المدارس، وكانت الغاية منه التعليم والتهذيب والتوجيه، والحث على الفضائل، والتمسك بالقيم، والسعي للوصول إلى المثل العليا... ولا أعرف من عَمِلَ في هذا الميدان قبل جميل وأنور سلطانٍ وعبد الرحمن السفرجلاني، فقد أصدروا معاً كتاب "الاستظهار المصور" في أدب البنين والبنات، عن المكتبة الهاشمية عام ١٩٣٧ فجاء في حلقتين لا يزيد عدد صفحات كل حلقة على الثلاثين صفحة، ساروا فيهما على نهج الشاعر محمد الهراوي في مصر، فتحدثوا عن: البطيخة، والقبرة، والاعتماد على النفس، والإبرة، واليراعة، والديك، والدجاجة، ومكارم الأخلاق، والعلم، والفلاح، والقلم، وكرة القدم، والصباح، والنحل، والكتاب، والأرنب، والعمال الصغار، والهرة النظيفة، إضافة إلى عدد من الأحجيات والأناشيد... وقد طغى على هذه الأناشيد طابع التعليم والإرشاد، وقلت فيها الحكاية. ولا غرو، فقد نظمت لتلاميذ المدارس في المرحلة الابتدائية، فاختيرت لها الأبحر

(*)بلغ مجموع ما أنتجته مصر من كتب الأطفال في عشر سنوات ألفي كتاب، أي بمعدل مئتي كتاب في السنة الواحدة، وهذا دليل على اهتمامها الزائد بأدب الأطفال.

السهلة، كالوافر، والرمل، والهزج، والمجزوءة كمجزوء الكامل وغيره... من هذه الأحاجي التي تروض ذهن الطفل، وتحثه على التفكير، قول جميل سلطان في المنديل، تحت عنوان "احزر"؟

ماذا الذي ينشأ في ال
ترابِ تحتَ قدميكْ
تغزلُه الآلةُ أو
يُنسَجُ ما بينَ يديكْ
وهو بكل صُبُحٍ
مقبّلٌ لوجنتيكْ
احزر ! هو ... قد
خُصّص في البيت إليك

وقوله ملغزا في "الرمانة":

ما قشرةٌ رقيقةٌ
كأنها فنجانُ
مغلقةٌ داخلَها
اللؤلؤُ والمرجانُ
من مؤنة البيت
ومما يثمر البستانُ
ينالها المجدُّ والأدي
بُ والكسلانُ
وأنت تهوى أكلَها
فاحزر: هي ...

وتعتمد قصائد "الاستظهار المصور" على الوصف الدقيق، وبعث روح الهمة والعمل والنشاط، ومن أنشط من النحلة ليضرب بها المثل في الدأب والمثابرة، والجلد والكفاح؟ يقول جميل سلطان تحت عنوان "نحن والنحل":

النحلةُ المبكّرهْ
تطوف حولَ الزّهَرهْ
خارجةً من معمل
لروضة منحدرهْ
ساعيةً عاملةً
عن ساقها مشمّرهْ
ولا تراها أبداً
عن عملٍ مقصّرهْ
ونحن نمضي في الصبا
حِ للدروس بَرَرَهْ
نكسبُ في العلمِ وفي
الرضاء خيرَ ثمرهْ
للنحل شَهدٌ ولنا
في كلِ درسٍ سُكّرَهْ

ونلاحظ في هذه القصيدة كيف جعل النحل قدوة، وربط العمل بالمكافأة، فالنحلة تكافأ على جدها بالشهد، والطفل يكافأ على الدرس بقطعة السكر.

وفي قصيدة "أغنية الصغير" حث على الاجتهاد وحب الأدب، والتمسك بالقومية العربية، واحترام المعلمين، والتفاني في سبيلهم:

أنا في سن الصِّغرْ
لست أعرفُ الضجرْ
همتي فوق البشرْ
واجتهادي لا يلينْ
أنا في سن الصِّبا
بتُّ أهوى الأَدبا
وأحب العربا
خيرَ قومٍ أكرمينْ
أبذِلُ الروحَ لمن
علَّموني في الزمنْ

ولمـــن يهـــوى الـــوطن
بـــين أضـــلاعي حنـــينْ

-٧-

لا أذكر كتاباً آخر صدر للأطفال ما بين ١٩٣٧-١٩٦٠ إلا مسرحية القاص عادل أبو شنب "الفصل الجميل" التي صدرت عن دار مجلة الثقافة عام ١٩٦٠. وهي مسرحية ذات فصل واحد، كتبها ليسد بها فراغاً بينا في أدب الأطفال، كما يقول في مقدمتها، وليجيب على كثير من التساؤلات الملحة: "لماذا لا يكون للأطفال مسرح خاص بهم؟ لماذا لا تؤلف مسرحيات خاصة بهم؟ لماذا يعرض كتابنا عن هذا الضرب من الأدب... من أجل الأكباد التي تستحق التعهد والرعاية منذ الصغر؟".

تصور مسرحية "الفصل الجميل" مشهداً لا يمكن وقوعه في العالم المألوف، كما أن الأشخاص الذين يمثلونها رموز لمدلولات معنوية في أغلب الأحيان، فهي إذاً مسرحية أسطورية، أبطالها الشتاء، والفتاة، والبستان، والمدينة، والغابة، والربيع، لذلك يؤكد المؤلف على أن يكون الديكور فيها منسجماً مع الحوادث الأسطورية التي تعالجها، وعلى أن تكون الملابس منسجمة أيضاً. وقد كان يظن أن الإقدام "على تأليف هذا الضرب من المسرحيات أمر سهل يسير، وأن مسرحية صغيرة كهذه لن تستغرق أكثر من يوم وليلة في أبعد الحدود، ولكن تبين أن التقهقر إلى عالم الطفولة وانتقاء الكلمات التي يمكن أن تنطق وتفهم بسهولة، واصطفاء فكرة مشوقة يهتم لها الأطفال ويتابعونها أمور صعبة جداً.

كتب حوار المسرحية بلغة قريبة من السجع، ربما ليمنحه شيئاً من التنغيم والموسيقى، ويبدو قريباً من الشعر، فيسهل حفظه على الأطفال، إلا أنه لم يكن يلتزم ذلك دائماً.. يقول على لسان الشتاء مثلا: "أنا الشتاء، صانع الخيرات، حامل البركات، لولاي ما جرت في الربيع الجداول، لولاي ما كانت في الصيف السنابل، لولاي ما غنت العصافير والبلابل...".

-٨-

ثم يجب أن ننتظر أربع سنوات أخرى، حيث يطالعنا ديوان "أغاني الأطفال" للشاعر أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) الذي أصدرته مكتبة "أطلس" بدمشق عام ١٩٦٤، ويحوي سبع عشرة قصيدة وأنشودة كلها من نظمه، باستثناء أنشودة "ديكي أحبه" التي اختارها للشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣)، وقد وضع أمام كل قصيدة نوطتها الموسيقية، عدا القصائد الخمس الأخيرة.

يذكر أبو سلمى (١٩٠٩-١٩٨٠) في مقدمة الديوان الدوافع التي حملته على الكتابة للأطفال، فيجعل في طليعتها خلو مكتبتنا العربية من هذا اللون الموجه للصغار، وإلى أن الأدب العربي القديم قد أهملهم كلياً عدة قرون، فعاشوا في عالم عابس صارم، خال من البهجة والسرور، وقد توخى "أن تكون ألفاظ هذه القصائد الغنائية سهلة، وأوزانها خفيفة، وموضوعاتها مشوقة، وأن تحمل أفكاراً بسيطة ونبيلة، وأن تحبب أطفالنا بالطبيعة، والوطن، وعمل الخير... كذلك جاءت ألحانها منسجمة متسقة تتعاون مع الكلمات والموضوعات على تهذيب وتوجيه تلك النفوس البريئة الصغيرة التي أهملها أدبنا العربي طويلا".

ولما كان يعرف ولع الصغار بالحيوانات والطيور، ولا سيما الأليف منها، فقد نظم لهم أناشيد "راعي الغنم" و"الببغاء" و"البلبل"،

وحدثهم بأسلوب لطيف عن القطة، والديك، والعندليب، والعصفور، وحاول أن يكحل أعينهم بمفاتن الطبيعة الجميلة، ويبصرهم بمحاسنها، ويطلعهم على أروع ما فيها من بهجة وإشراق في "نسيم الربى" و"النهر"، ولم يفته أن ينمي فيهم الإحساس بالقومية العربية، فكتب لهم "جنة الدنيا بلادي" و"يا رفاق السلاح" و"نشيد الحرس" و"عيد الجلاء" و"الوحدة العربية" ويلفت أنظارهم إلى واقع إخوانهم أطفال فلسطين الذين نزحوا عن أرضهم وديارهم عنوة في قصيدة "الشريد". كما حاول من خلال قصائده أن يرشد الأطفال إلى القيام بواجباتهم، ويحثهم على الدرس والجد والاجتهاد، فيخاطب الطفلة "ليلى" بهذه الكلمات المأنوسة العذبة قائلاً لها:

هيّا اكتبي
دَرْسَكِ يا ليلى
ثم العبي
وقطتي لليلا
وحاذري أن تغضبي

ثم يتحدث بلسان ليلى إلى القطة ألاّ تأكل عصفورتها حبيبتها، وأن تنتظر لترى المستقبل الباهر الذي ينتظرها، ما دامت تسير في دروسها سيراً حسناً، وترجو القطة ألا تشعر بالضجر والملل، إذا لم تستطع أن تنصرف إليها وتلاعبها، ففي البيت أمها وأبوها، وهي تؤثر كتبها على كل شيء:

يا قطتي
لا تأكلي عُصْفورتي
يا قطتي
عصفورتي حبُّوبتي
تُنْشِدُ لي في ملعبي
يا قطتي
انتظري غرسي
أنا التي
أسير للدرس
ألا ترين كتبي؟
يا قطتي
عندكِ أمي وأبي
ولعبتي
لا تعتبي لا تعتبي
أحسنُ منك مكتبي

وفي "نشيد الببغا" ينصح الطفل بألاّ يكون مقلداً مثلها، ويكرر له عبارة "فلا تكن كالببغا":

الببغا مقلّدَهْ
وِلا تُرى مجدِّدَهْ
تَعْجِمُ في بيانِها
والعَقلُ في لسانها
تقول ما قيل لها
فلا تكنْ كالببغا

ثم يصف شكلها: فمنقارها محدّب، وريشها جميل، وإذا حبسها الطفل فلحرصه عليها، وتعلقه بها، ولحبه إياها، لأنها تؤنسه في وحشته:

منقارها محدّبُ
وريشها محبَّبُ
أحبسُهَا في غرفتي
وذاكَ من محبتي
تؤنسني في وحشتي
الببغا، الببغا
لسانُها ما أطولَهْ !
وشَكلُها ما أجملَهْ !

فمــــــــــرةً تُحبُّنــــــــــي
ومــــــــــرةً تسـبُّنــــــــي
تقــــول مــــا قيـــل لهـــا
فــــلا تكـــنْ كالببغـــا

وبالإجمال فديوان "أغاني الأطفال" لأبي سلمى كان أول لبنة وضعت في بناء شعر الأطفال في سورية، وقد حوى كل براءة الأطفال، وعالمهم الملون الزاهي المليء بالخيالات والأحلام المجنحة.

- ٩ -

لاحظنا من النماذج التي مرت بنا باستثناء أغاني الأطفال والفصل الجميل أنها كانت تخاطب الصغار بلغة الكبار الذين أبوا أنٍ يترجلوا عن خيولهم الخشبية ، ليداعبوا طفلاً بأنشودة، أو يضعوا على ثغره أغنية، أو أقصوصة، أو حكاية. وهي أقرب إلى الإنشاء، منها إلى أدب الأطفال الحقيقي. لكن لم يكتب لهذه المحاولات التي مرت بنا أن تتبلور، إلا بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧، وصدور مجلتي "أسامة" عام ١٩٦٩، و "رافع" عام ١٩٧٠ للأطفال، حيث توجه بعض الشعراء وكتاب القصة بإنتاجهم للأطفال، كسليمان العيسى، وزكريا تامر، عبد الله عبد، وعادل أبو شنب، وأيوب منصور، ودلال حاتم، واسكندر لوقا، وليلى سالم وعزيز نصار وبين الصفدي وغيرهم...

يقول سليمان العيسى "وذات يوم أفاقت أمتنا العربية على كارثة من كوارثها المتلاحقة، على نكسة حزيران... في هذه الزوبعة السوداء الخانقة... التفت إلى الأطفال.. رأيت في عيونهم غد الأمة العربية ومستقبلها، لم لا أتجه إليهم؟ لم لا أكتب لهم؟ لم لا أنقل إليهم همومي كلها؟ الشهيد الذي يسقط على أرض المعركة، وهو يقاتل الغزو الأسود، لا أستطيع أن أنتقم له بأحسن من أغنية تحمل قطرة من دمه، وتتردد حارة على شفاه الأطفال... نتوارى نحن... نيبس، نجف، ويأتي أطفالنا أمواجاً متلاحقة ترفد المد العظيم... من إيماني بهذه الحقيقة الصغيرة الكبيرة، المتواضعة الشامخة، بدأت رحلتي مع الصغار، أخذت أكتب لهم، أغني معهم، أنفق الساعات الطويلة بينهم، أختار لهم الكلمة المشرقة، والصورة الموحية، والموسيقى المعبرة".

وكذلك يربط القاص زكريا تامر بين نكسة حزيران واتجاه الشعراء والكتاب نحو الأطفال، غد الأمة العربية المشرق، ليغرسوا في قلوبهم معنى الإيمان والصمود، ويجسدوا في أذهانهم فكرة البطولة الحقة، فكأنهم قد يئسوا من الكبار، فمالوا إلى الصغار، لعلهم يغسلون عار حزيران، بعد أن يصبحوا شباناً، يتفجرون عزماً وقوة ومضاء فيقول:

"عندما جاءت حرب حزيران ونتائجها، ازداد ارتباطي بالواقع، وصار أكثر حدة وصرامة، وابتدأت أنظر إلى الصغار نظرة مختلفة. إنهم الجيل الذي سيطلب منه في المستقبل أن يجابه عدواً شرساً، ولذا فلا بد من منحه الوعي وإرادة التحدي، والرغبة العميقة في التغيير والحفاظ عليه... لا بد من أن يكون جيلاً قادراً على التضحية في سبيل العدالة والحرية والفرح".

وقد تكون هناك حوافز عامة أخرى للكتابة للأطفال، منها خلو مكتبتنا العربية من كتب الأطفال، وميل بعض الكتاب بالفطرة إلى هذا اللون المحبب الممتع من القصص التي تدور على ألسنة الحيوانات والطيور، وأبطالها النهر، والبحر، والسماء، والريح، والعصافير،

والقطط... إلا أن وجود مجلات للأطفال أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية كان العامل الأهم على تطوير أدب الأطفال، فأقبل الكتاب على التأليف والترجمة إقبالاً منقطع النظير، ليسدوا نهم الأطفال الشديد للقراءة والمطالعة، فالطفل قارئ جيد وذو طاقة جبارة على الحفظ والاستيعاب، يلتقط بسرعة، كأنه رادار عجيب، ويعكف ساعات طويلة على القراءة بلا ملل أو كلال، إذا كانت المادة التي يقرؤها جذابة، تخاطب مشاعره، وتداعب أحاسيسه، وتنمي خياله، وتروي ظمأه إلى المعرفة.

إن من يطلع على السلم البياني لمطبوعات ومبيعات مجلة "أسامة"[١] يذهل لهذا الارتفاع الملحوظ في نسبة الطبع والبيع والتوزيع، فالأطفال يقبلون على قراءتها، ويترقبون صدروها أول كل شهر بفارغ الصبر، فلا تكاد تصل إلى الأسواق، حتى تنفد في أيام معدودات، ولا يبقى أي أثر لها... ولا شك أن سعرها الزهيد، رغم غلاء الورق وأجور الطباعة، هو الذي يغري أفقر طفل بشرائها وربما بشراء أكثر من نسخة منها، ولا يمكن أن يسد هذا النقص إلا بجعلها أسبوعية، أو زيادة عدد صفحاتها إلى أكثر من اثنتين وأربعين صفحة. أما مجلة "رافع" التي صدرت في ١٩٧٠/٨/١٥ عن مؤسسة الوحدة فلم تعش إلا عاماً واحداً، وكانت تصدر صباح كل سبت في اثنتين وثلاثين صفحة من القطع الوسط، بخط اليد، وتخرج أجمل إخراج، وتحمل للأطفال القصص والحكايات والرسوم الجميلة، وسميت باسم رافع، نسبة إلى رافع بن خديج، وهو فتى عربي شجاع من قبيلة الأوس، كان يحب وطنه العربي حباً جماً، ويؤمن بأن السيف وحده هو القادر على هزيمة الظلم. وقد ساهم في

تحريرها كل من الشاعر سليمان العيسى، ومحمود السيد، وزكريا تامر، وأيوب منصور، وغيرهم...

من الشعراء الذين برزوا بشكل واضح في ميدان الكتابة للأطفال سليمان العيسى الذي كرس معظم إنتاجه الشعري الأخير، إن لم نقل كله، للأطفال، ففي مجال المسرح ألف لهم عام ١٩٧١ مسرحية طويلة بعنوان "النهر"، ثم عاد فأصدر لهم عام ١٩٧٣ ست مسرحيات غنائية في كتاب واحد ضم: "الأطفال يحملون الراية" و"الشجرة" و"الأطفال يزورون المعري" و"الصرصور والنملة" و"مستشفى الأطفال" و"الأطفال يبنون مدرسة "، ثم مسرحية "المستقبل".

يرى سليمان العيسى أنه " كما لا تتفتح أزهار الربيع إلا بالشمس والهواء والماء، كذلك لا يتفتح الأطفال على كل جميل ورائع إلا بالموسيقى والحركة والغناء"، ويقول أيضاً: "دعوا الطفل يغني، بل غنوا معه، أيها الكبار... إن الكلمة الحلوة الجميلة التي نضعها على شفتيه، هي أثمن هدية نقدمها له... لكي يحب الأطفال لغتهم، لكي يحبوا وطنهم، لكي يحبوا الناس والزهر، والربيع، والحياة، علموهم الأناشيد الحلوة، اكتبوا لهم شعراً...".

كتب سليمان العيسى، إضافة إلى المسرحيات التي ذكرتها، طائفة كبيرة من الأناشيد الغنائية، صدرت تحت عنوان "أناشيد

---

[١] صدرت "أسامة" مجلة الطفل العربي عن وزارة الثقافة في أول شباط عام ١٩٦٩، ومن أهدافها تنمية وعي الطفل العربي على قيم أمته وتزويده بالثقافة الصحيحة، وتقديم التسلية المفيدة. وقد دأبت على تقديم موضوعاتها بالفصحى المشكولة غالباً، حتى يرسخ الصرف الصحيح واللغة الصحيحة في أذهان الأطفال.

للصغار" عام ١٩٧٥ ثم "غنوا أيها الصغار عام ١٩٧٧، كما صدر له في منشورات "مجلتي" "القطار الأخضر"، وهو رحلة غنائية شعرية تتألف من واحد وعشرين نشيداً، يطوف بها على عواصم الوطن العربي كلها، ويرسم فيها للصغار طريق المستقبل العربي، وقد صدرت جميع أعمال سليمان العيسى الشعرية التي كتبها للأطفال في ثلاثة مجلدات أنيقة الطبع. والجدير بالذكر أنه انصرف في الفترة الأخيرة انصرافاً كلياً إلى الكتابة للأطفال، لأنهم في رأيه "غد الأمة العربية ومستقبلها المشرق" فلم لا يتجه إليهم، ويكتب لأحبائه: ريم، وتيم، وديمة، وطلال قائلا:

ريم ريم مرّ نسيمْ
في بستان اللوزْ
قالت زهرةُ لوزْ
اسمُ الزهرِ قديمْ سميناها ريمْ

ولصديقه الصغير "تيم" على شاطئ اللاذقية:

صديقِي "تيم" جاء الصيف من بوابةِ البحرِ
وهدَّدَنا بما في جيبه المثقوبِ من حَرٍّ
وغادرت العصافيرُ محابسَهَا
وأعني بيننا أعني مدارِسَهَا

ولنسمعه يغني مع الأطفال الصغار في "نشيد ماما" ألحاناً لا أعذب ولا أحلى قائلاً:

ماما ماما
يا أنغاما
تملأُ قلبي
بندى الحبِ
أنت نشيدي
عيدُكَ عيدي
بسمةُ أمي
سرٌّ وجودي

وفي نشيد "فلسطين داري" حيث يهتف جميع الصغار بصوت واحد يفيض نبرة وحماسة، ويتفجر نخوة وحمية:

فلسطينُ داري
ودربُ انتصاري
تظلُّ بلادي
هوىً في فؤادي
ولحناً أبيّا
على شفتيّا
وجوهٌ غريبهْ
بأرضي السليبَهْ
تبيع ثماري
وتحتل داري

-١١-

أما الشاعر حامد حسن (١٩١٨-١٩٩٩) فقد استطاع من خلال عمله في مجلة "أسامة" أن ينشر عدداً من القصائد التي لم تجمع حتى الآن في ديوان، مثل "عربي" و "بلادنا في الربيع" و "البندقية" وكلها قصائد توجيهية بناءة هادفة، كما يلاحظ من عناوينها. يقول في قصيدة "عربي":

علمتني في الصبا أمي وأوصاني أبي
عش لهذا الشعب عش للعلم عش للأدب

كـــــن لســـــوريه للتـــــا
ريــــــخ كـــــن للعـــــرب

ويقول في قصيدة "بلادنا في الربيع" التـي يصف فيها سورية في فصل الربيـع، وتفـتح الزهر، ورقة النسيم المعطر:

جـــاء الربيـــع النـــاعم
ورقّـــت النســــائم
والخيـــر فـــي حقولنـــا
مواســـم مواســـم
والزهـــر فـــي جناتنـــا
مفـــتّح ونـــائم

وشارك عيسى فتوح في الكتابة للأطفـال، فنظم بعض القصائد، لكنه اتجه للقصة مؤلفة ومترجمة، فنشرت له وزارة الثقافة خمسة كتب هـي: "عنـدما جـاءت عصـافير الدوري" ديوان شعر مصور للشاعرة البلغارية ليدا ميليفـا، و"مدرسـة اللقلـق" مجموعـة قصصية لسبعة من أبرز كتاب قصص الأطفال في روسيا هـم: م. بلياتسكوفسـكي، إيرينـا زيلينوفا، ألكسي تولستوي، سـيلفي فالجـال، ألكسندر بوشكين، يوري أفيرنكـوف، فـالنتين كاتايف. و"دنيا الحكايات" للكاتب البلغاري أنجل كاراليتشف، و"الفأس الذهبية" وهو مجموعـة قصصية لطائفة من أشهر الكتاب في روسـيا وبلغاريا ورومانيا والصين وبنغلادش و"النمس الوفي" وهو مجموعة من الحكايات الهندية.

ومن شعره الذي نشره في مجلة "أسـامة" عام ١٩٧٤ قوله في قصيدة بعنوان "قطي":

قطـــي الســـاحرُ
فـــي الأســـحارِ
عـــينٌ يقظـــى
تحمـــي داري
دومـــاً يهـــوى
صـــيدَ الفـــارِ
يســـعى قفـــزاً
للأوكـــارِ
قطـــي يـــأبى
ذلَّ العـــارِ
قطـــي يهـــوى
أخـــذَ الثـــارِ

وهناك شعراء آخرون جربوا أقلامهم فـي الكتابة للأطفال، فنظموا قصائد قليلة، إلا أنهـم لم ينصرفوا لهـم انصـرافاً كليـاً أو جزئيـاً، باستثناء مصطفى عكرمة الذي كـان أكثـرهم اهتماماً، فألف مسرحية "جند الكرامـة" و"فـي الطريق". من هؤلاء: سـلامة عبيـد، خليـل خوري، محمد الحريري، أحمد الجندي، نصوح فاخوري، بيـان الصـفدي، محمـود السـيد وغيرهم.

أما نصيب أدب الأطفال من القصـة فكـان أوفر، إذ أقبل عليها الكتاب والمترجمون إقبالاً كبيراً، وراحوا يتنافسون فيها، 'يسدوا الـنقص الواضح الذي عانى منه أدبنـا العربـي عـدة قرون، وقد جمع أكثرهم قصصهم فـي كتـب، لكي لا تبقى موزعة في مجلة "أسامة" وغيرها منهم ، لينا كيلاني، عبد اللطيف أرناؤوط، سعد صائب،خيري عبد ربـه، حسـيب كيـالي، ولا يجوز أن نغفل بعض الأسماء اللامعة في ميدان التأليف والترجمة الـدائمين كميخائيـل عيـد ومحمد قرانيا وليلى صايا، ودلال حاتم، ونصر الدين البحرة، ووليد معماري،ومراد السباعي، وعزيز نصار، وبيان الصفدي وغيرهم.




السؤال الأخير..

شعر الدكتور: عمر النص

-١-

تساءلتُ ماذا تبقّى من الحُلْمِ؟
ماذا تبقى من الأنجم الباهرات تسافر فوقَ دروب العقيق
فتزرع قفراً وتنزع ستراً وتترك فوق الغيوم العطاش بقايا
بريق
تساءلتُ ماذا تبقّى من البرق حين تضيء السماء
فيهتك ليل الدهور الخوالي.. فنشهد زهو الأساطير حين
تهاجر صبحاً..
فتفتح للمدن الغافيات مرافئ
تخرج منها الضلوع محمّلة باللآلي..

-٢-

تساءلتُ ماذا تبقّى من الحبّ؟
ماذا تبقى من العشق والعنفوان؟
من الشوق يلهث في الناظرين؟
من النار تكوي العروق فتطلع فوق الرماد حديقة وردٍ
ترقّ لها الريح حين تعاودها الذكريات فتتركها تزهر
وماذا تبقّى من الأغنيات التي أينعت في دمي ثم ماتت







ولم يبق منها سوى أحرف نسيت ما تقول
فراحت تهز الضلوع فخلت الهوى في دمي يجأر..

-٣-

تساءلتُ ماذا تبقى من الحلم؟
ماذا تبقّى من العشق؟
ماذا تبقى من الذكريات التي تعبر الأفق هاربة من
إساري؟
ألم يتعب الصخر من قدميَّ اللتين نشقتا في القفار؟
ألم تمحَ كل الحكايات بعدي؟
ألم يمحَ ما كان أو قد يكون؟
ألم تنفذ الأسئلة؟
ولم يبق غير سؤال أخير؟
سؤال صغير.. أخير.. يلحّ.. يصبح على الشفتين.. يقولُ..
وماذا تبقى من العمر بعد رحيل الشباب وبعد انتحار
الزنابق بعد نضوب البحار.. وبعد اختفاء العناوين عن كل
باب..
وماذا تبقى من العمر بعد رحيل السراب..
فهذي حدائقنا فتحت بابها للشتاء.. ولم يبق غير التراب..
ولم يبق غير السؤال الأخير..
يضجّ على الشفتين..
يلحّ ولم يبق غير السؤال الأخير دون جواب..




اللغة العربية الفصحى

"أسباب انحدارها وعوامل النهوض بها"

بقلم الدكتور:
فخر الدين قباوه

نحن، أبناء العرب في المشرق والمغرب نعاني كثيراً من الآلام المشتركة، ونحس بحاجة إلى التعاون على معالجتها للتخلص من ذيول التخلف المرير. وبعض هذه الآلام عميق الجذور في نفوسنا، خطير الأثر في حاضرنا ومستقبلنا، بعيد المدى في تكويننا الحضاري والإنساني، يكاد يستعصي على التقويم والإصلاح.

ولعل من أبرز هذه الآلام المستعصية ما تنوء به لغتنا العربية الفصحى، فنحن مدرسين وأدباء وعلماء، كثيراً ما نشكو مما آلت إليه هذه اللغة في ديار العرب.

إنها تعيش حبيس بعض الدوائر الصغرى من حياتنا العلمية، ولا تستطيع أن تتنفس في كل ميدان وعلى كل قلم ولسان. بل إن أكثر المثقفين ومدعي العلم والأدب ليعجز أن يتمثل هذه اللغة المباركة في نشاطه وإنتاجه، فيصب عليها سخطه وغضبه، ويرى النجاة من عثراته في التفلت من أحكام العربية وقواعدها لينطلق في متاهات العجمة والضلال.

حتى لقد أصبح من أشيع المبادئ وأروجها أن تتسلل أصابع العامية والأعجمية إلى لغة العلماء والأدباء، بل الدارسين والمتأدبين.

العامية والثقافة

وإننا لا ننكر أن تكون اللهجات العامية، في بلاد العرب، قد دخل عليها تحسن ملموس في هذا القرن، بعد جلاء دول الاحتلال والاستعمار، فارتفعت من حضيض العجمة المغرقة إلى مستوى يتصل ببعض مظاهر

الفصحى وأساليبها. وقد ساعد في ذلك على انحسار اللغات الأعجمية التي كانت مستبدة بالثقافة والتعليم والتوجيه، وتقلص رقعة الأمية في المجتمع العربي. ولذا أصبحت ترى اللهجات المحلية تغزوها كلمات فصيحة، وجمل عربية، وعبارات قريبة جداً من الفصحى.

ولعل هذه الظاهرة قد ضللت بعض الباحثين، فباتوا يرون أن مشكلة اللغة مرها يسير، وإنها قضية اجتماعية ثقافية، علاجها محو الأمية ونشر التعليم والثقافة.

انحدار الفصحى

والحق أن ارتفاع مستوى العامية واكبه انحدار لغة العلم والأدب، وتدني أساليبها ومفرداتها، كتابة وقراءة وأداء وإذا قدر لنا أن سير في هذا الاتجاه مراحل أخرى فإن اللغة الفصحى ستصبح، بلا شك، في خطر محقق ينذر بالفناء والضياع. فاللهجات العامية، وهي تعارض الفصحى وتستقي منها، تنقل إليها بعض تعابيرها وكلماتها على ألسنة المثقفين وأقلامهم، فتشدها إلى ميادين غريبة تهدد بالاضمحلال والاندثار.

ولهذا أصبح ضعف اللغة العربية في صفوف المثقفين والمتعلمين ظاهرة ملحوظة تزداد قوة يوماً بعد يوم. فقد كان هؤلاء في عهود الاحتلال والاستعمار شد حرصاً على فصاحة الكلمة، وبلاغة العبارة، والاستقاء من ينابيع البيان العربي الأصيل، والأعراض عن رطانة الأعاجم وسفساف العامة.

أما اليوم فقد أصبحنا نراهم ينزلقون إلى مهاوي العجمة العامة واللهجات المحلية فيستمدون منها عامدين أو غافلين كثراً من مادة نتاجهم الأدبي والعلمي.

وأنت ترى هذا الخطر يتفاقم مع الأيام حتى ليكاد يشكل عثرة أزلية، ومعضلة أبدية في طريق الأمة نحو اكتشاف ذاتها، وتحديد سبيل الحياة الكريمة المطمئنة.

إنها ليست مسألة لغوية اجتماعية فحسب، وإنما هي داء نفسي وعقلي وعلمي، يهدد مقومات العرب وحضارتهم ووجودهم في الحاضر والمستقبل.

وإذا حاولنا أن نتلمس بوادر هذا الداء، ونتتبع أصوله ومصادره، لنضع أيدينا على الأسباب التي ولدته ورعت نموه وتطوره، استوقفتنا نقاط كثيرة متداخلة، يتعذر حصرها وتحديد ملامح كل منها.

وحسبنا أن نذكر ها هنا أبرزها وأخطرها.

ثنائية لغوية

ونعني بالثنائية اللغوية هذا التداخل العجيب بين الفصحى واللهجات الدارجة يستخدمها كل عربي، مثقفاً كان أم أمياً. فهو يتلقى في طفولته أول لهجة عامية متهافتة، ويزود بها في البيت ثم في الشارع والنادي والملعب والملهى، وسائر مصادر الثقافة الشعبية. بل إنه يتعلم بعضها أيضاً في المدرسة والمعهد والجامعة ومن المذياع والصحافة والتلفاز، ويمارسها في جميع شؤون حياته تفكيراً وتعبيراً. حتى إذا درس اللغة الفصحى قدمت إليه مثقلة بأوزار العامية وما تحمله من آثار محلية وأعجمية تستبد بفكره ولسانه

وقلمه، وتغمر تلك الشذرات الفصحى، وتفسد مدلولها وغاياتها التي ترمي إليها.

فإذا أراد الكتابة، بعد هذا، أو النظم أو القراءة في محفل قام في نفسه صراع خفي بين قوتين متدافعتين متناقضتين، أحدهما تجره إلى الكثرة المفرطة التي غمرته بها بيئته، والأخرى تشده إلى بوارق غائمة مما زودته بعض المصادر العربية الأصيلة. فإذا هو يعاني عنفوان الصراع، ويدفع نفسه جاهداً ليرتفع بها إلى أصالة اللغة وصفائها، ولكنها يجابه بسلطان العامية المسيطرة على ثقافته وقدراته، وبتفلت زمام الفصحى من يده فينهار أمام القوة الكبرى، ويستسلم لتيارات اللهجات الدارجة، تتخلل لغته فتفسدها أو تطغى عليها.

لغة هجينة

وقد كان لهذا الرجحان عوامل مساعدة متناثرة، أظهرها وأبلغها تسلط الأعاجم على البلاد العربية برجالهم وثقافتهم وحضارتهم ولغاتهم. فقد عشنا قروناً متوالية عبيداً أو كالعبيد، لسطان الأعاجم مماليك وعثمانيين وبربراً وفرنجة، فاضمل التيه العربي، وذاب الاعتداد بالنفس واللغة والدين والتاريخ ليحل محله الانبهار بالعجمة وزخارفها، والاستسلام لبهرج التقليد والانحدار، والتردي في أحضان الصغار.

حتى أن كثيراً من أبنائنا أصبحوا ينظرون إلى الفرنجة ولغاتهم وثقافتهم بعين الإكبار والإجلال، ويرون الحضارة الإسلامية واللغة العربية أقل من تملأ قلوبنا وعقولنا، وتثمرا واقعاً يمهّد للنمو والتحرر والتقدم. ولذا يطالعنا بين حين وآخر تعشقِ أبناء العروبة للغات الأعاجم وأخلاقهم، وتفاخرهم باستخدام اللغات الهجينة في كلمات أو عبارات أو جمل، وأعراضهم عن البيان العربي تحت وطأة الضعف اللغوي الذي يعانون والانهيار النفسي الذي يكابدون.

صحيح أن اللهجات الدارجة هي في الأصل تشويه للعربية الفصحى، وصحيح أيضاً أن هذا التشويه لم يكن للاحتلال والاستعمار يد في غرس جذوره، وأنه نشأ وتولد من مصادر ثلاثة: انتشار الموالي والمولدين، واستلطاف لكنه الأطفال والأعاجم، والإعراض عن فحولة الكلام وفصاحته، بما جبل عليه الإنسان من اخلاد إلى السهل الميسور، وتفلت من قيود القوانين الحازمة. ولكننا لا نستطيع أن نغفل الآثار التي كانت للمحتلين والمستعمرين في تعميق هذا الاتجاه، ورعايته، ودفعه نحو الرسوخ والاستمرار.

وقد ساعد على ترجيح كفة العامية وتثبيت دعائمها واستحكام سلطانها، أن النتاج العلمي والأدبي الذي أصدره العرب والمستعربون في هذا العصر كان مصبوغاً بألوان هجينة مهلهلة ركيكة، أقبل عليها المثقفون والمتعلمون، فرسخت في أذهانهم وألسنتهم تلك الرطانة، ودمرت ما بقي من فلول العربية الفصحى، وإذا خلا الكتاب أو الصحيفة من الركاكة والهجنة لم يكن في مستوى لغوي رائق، وكثرت فيه الأخطاء والسقطات، ولم يحظ بالضبط المناسب للحروف، فكانت قراءته تزيد المثقفين ضعفاً وانحداراً.

مناهج قلقة

والسبب الثاني الخطير في انحدار العربية الفصحى هو اضطراب التعليم في الوطن العربي، ونعني به ما يسود المناهج الدراسية، والسياسة التعليمية، وأساليب التربية والتعليم، وشخصيات المعلمين، من فوضى وقلق واضمحلال.

فالمناهج، ولا سيما مناهج اللغة العربية، لم تستطع أن تجد لها بعد الاستقلال مستقراً واضح المعالم، جلي الهدف، ناجح الوسائل، تنطلق فيه من مراحل العبودية والاستعمار إلى فسحة التحرر والبناء. ومازالت حتى يومنا هذا تتخبط بين مد وجزر، وتنتقل من سيء إلى أسوأ. فالمسؤولون يتعاورون هذه المناهج، ويتصرفون فيها كل بحسب ما تمليه عليه أوهامه ونظراته المرتجلة فيكون تقلقل وتغيرات مستمرة ليس لها ضابط هادف، أو روح عامة موحدة.

العلوم الإنسانية

والسياسة التعليمية في الوطن العربي ليس فيها وضوح يصل مراحل التعليم بعضها ببعض، يجعل كلاً منها متمماً لما قبله وبعده. وهي ما تزال تجاهر بالتنكر للعلوم الإنسانية، والتشجيع للعلوم الطبيعية. وقد أدى هذا، بلا شك، إلى تضعضع مكانة اللغة العربية وما يدور في فلكها من علم وفن. ولهذا ترى جمهور الطلاب، والمتفوقين منهم بخاصة، ينصرفون بجهودهم إلى دراسة الطب والهندسة والعلوم التطبيقية، ويعرضون عن تجنيد أنفسهم وكفاءاتهم لخدمة العربية، فتفقد بذلك عقولاً فتية وقلوباً متعطشة، وقدرات هائلة، ونفوساً مندفعة نحو الإبداع والإنتاج.

التعليم بالعامية

وأساليب التعليم عندنا تغفل اللغة الفصحى، وتجيز للمعلمين أن ينقلوا العلوم والفنون باللهجات المحلية الدارجة بل إنها لتفرض أحياناً أن يدرسوا بعضها باللغات الأعجمية، وكثيراً ما تنقل اللغة العربية الفصحى إلى الطلاب بأساليب عامية أو شبه عامية، فتدخل عقولهم، وترسخ في ألسنتهم هجينة شوهاء. أضعف إلى هذا أن القراءة الصامتة والهجرية تشجع الطلاب، في شكلها المتبع اليوم، على إهمال الفصحى والتنكر لها، وإتقان الأساليب العامية في التعبير واللفظ والأداء.

وبهذا يقوم في نفوس الناشئة انفصال كبير بين العلم والثقافة والخبرة من جهة، واللغة العربية الفصحى من جهة ثانية، فإذا أرادوا نقل ما في نفوسهم، من تجارب وخبرات وعواطف وأخيلة، لم يجدوا غير العامية أو الأعجمية سبيلاً.

اختبار الذاكرة

والامتحانات، على ما فيها من عناية بالعربية، لم تعط اللغة الفصحى حقها في التقويم والتقدير. فكلنا يعلم ما ظهره مؤسسات التعليم من شروط خاصة لنجاح الطلاب في مواد اللغة العربية بل في نجاحهم العام الذي يرتبط بتلك المواد. وكلنا يعلم أيضاً أن تلك

المظاهر جوف سطحية، لا تدعمها أسس علمية تخدم تمكين الفصحى وسيادتها.

فالامتحان التحريري يجوز فيه كل تعبير، وتغتفر فيه أكبر الأخطاء وأشنع التراكيب، ويكتفي فيه بأداء المعلومات دون النظر إلى اللغة التي أدتها وعبرت عنها. ثم تكون المساعدات تلو المساعدات لإنقاذ الراسبين، ودفعهم إلى الصفوف التالية أو الجامعة أو الشارع والامتحان الشفهي أو العملي ليس له كبير اهتمام باللغة، وحسب الناجح فيه أن يجتاز مقاييس اختبار الذاكرة والذكاء والأداء.

قدوة هزيلة

وشخصيات المعلمين لدينا ينقصها الوعي اللغوي والاجتماعي، وتشغلها حاجات الحياة بأثقالها وهمومها. فالمعلمون في المدارس الابتدائية، والمدرسون في المدارس الإعدادية والثانوية والمعاهد، والأساتذة في الجامعات، عندهم كثير من الرواسب اللغوية المختلفة التي تزيد اللهجات العامية قوة ونماء. ومدرس العربية خاصة يمثل في نظر الطلاب، صورة الجمود والجفاف والتعصب، لأنه لم يحظ بالثقافة الواعية، واللغة العملية الرشيقة، والنظرة السليمة إلى دور اللغة في التعليم، وقدرتها على النمو واستيعاب حاجات الأمة في مراحل حياتها المختلفة. ورجال التعليم عامة يعيشون في بؤس وفاقة، يعانون مرارة الحاجة والحرمان فلا يجدون فرصة سانحة للنهوض بأنفسهم وطلابهم. وحسبهم أن يرمموا بعض الثغرات المتقادمة، ويقدموا إلى الأمة أجيالاً من العقول المثقلة، والقلوب العازفة عن فصاحة العربية وأدبها وعلومها وفنونها.

أضف إلى هذا أن كثراً من رجال التربية والتعليم يصل إلى منصبه، ويتسلم زمام التوجيه والقيادة، بشهادة شكلية من إحدى الجامعات، أو أحد المعاهد أو الأحزاب، وليس لديه من الكفايات والإمكانات ما يرشحه لهذا العمل الخطير.

فإذا علمنا أن مهمة المعلم تربوية قبل أن تكون تعليمية، وأنه لا يستطيع أن يقوم بها بنجاح إلاّ حين يسيطر على قلوب طلابهم وعقولهم، وينال ثقتهم وتقديرهم لشخصيته وكفاياته، ويجعلهم ينظرون إليه نظرة الإعجاب والتقليد..

إذا علمنا هذا كله علمنا أية جريمة نقترفها حين نهمل شخصية معلم العربية وغيرها. ونضع أمام أبنائنا قدوة هزيلة في المدرسة والمجتمع.

تلك أبرز الأسباب التي هدمت صرح اللغة الفصحى، قد بسطناها في شيء من الإيجاز، على أمل نعرض لها بالعلاج العملي في مقالة أخرى إن شاء الله.

ونحن، إذ نعد أنفسنا لذلك، نهيب بالعلماء والأدباء أن يشاركونا في تشخيص هذا الداء، ووضع العلاج الناجح له. لعلنا نعيد إلى لغة القرآن إشراقها وسلطانها في العالم خاصة، والمجتمع الإنساني عامة.




يا شاعر العرب

شعر: عبد الحميد علي – بدوي الساحل

مهداة إلى شاعر شباب العرب الدكتور رضا رجب

يـا شـاعِرَ العـربِ الفصـاحِ والشـعرِ والغيـدِ المـلاحِ
وفتـى عكـاظِ الضـادِ في عـرسِ المنابرِ والصداحِ
أشـعلتَ نـارَ العبقرِيـة في ميـادينِ الكفـاح
وشـرعتَها عربيَّـة في كـل رابيـةٍ وسـاحِ
وسـقيتَها ريَّـا شـبابك في غـدوك والـرّواح
مسـتلهماً مـن نبعـةٍ ألـقَ الأصـالةِ والصَّـلاح
ومجـدتَ في أمجادِهـا سِيرَ الملاحـمِ والصِفاح
نشـوانَ في خمـرِ العقيـدةِ يعربـيَّ القصـد ضـاحي
يمضـي يراعـك مـن نجـاحٍ يطمـئنَّ إلى نجـاح
لم يثنـه الزهـوُ المـبينُ عـنِ التواضـع والنَّفـاح
فـازدانَ جيـدُ الضـادِ في نعمـى وفائِـك والسَّماحِ
ونشـرتَ عمـرك أريحـي الحـبِّ مطلـولَ الوشـاحِ
ليُظـلَّ ريحـانَ الجنـانِ مـن الهجـيرةِ واللفـاح
وسـكبتَ دمعَـك في مراشِـفها شـذا المـاءِ القـراحِ
يـا شـاعراً زانَ الـتراثَ وصَـانَه مـن كـلِّ لاحـي
نزَّهـتَ طهـرَ الشـعرِ مـن حمَّالـةِ الحطـبِ الوَقـاح
والـراغبين ببدعـةٍ شـوهاء مـن خُـدعِ السِّـفاح
المعرضـين عَـنِ الصَّـوابِ العـاكفين إلى (سـجاح)
يـا مبـدعاً سـكبَ الفتـونَ بكـل ناعسـةٍ رَداحِ
الشـعر مـن عطـرِ النبـوة لا الهجـين مـن المـزاح







والنسر أغنيـــة السَّـــماءِ يـــرود يهـــزأ بالرِّيـــاح
في ملعــب الأقمــارِ في رأدِ الضــحى شـأو الجنــاحِ
إن راحَ يقليــه البغــاث فهــل عليــه مــن جُنــاح
(يــا شــاعري) ونغيمُ شــعرِكَ في العقــول كــؤوسَ راحِ
أســـكرتَ فيـــه العاشـــقينِ وأنـــتَ نشــوانٌ وصَــاحي
شملــتْ ســلافتُه الحيــاةَ وعــالمَ المرضــى الصِّحاح
أبدعتَــه للزهــوِ في جيــدِ الكواعِــب والمــلاح
حلمــتْ بــه الأجيــالُ فالتفــتَ الصباحُ إلى الصَّباح
شــامت بوجهــك سُــؤْلَها ورجائهــا مــن كــلِّ ضــاحي
ســيجتَ كــرمَ (أبــي المحسَّــلِ) بالــدراري والأقــاحِ
وجلــوتَ إبــداعَ الخيــالِ وفــزتَ بــالأمرِ البَــراح
لــو عــاودَ الــدنيا (نــبيٌّ) الشــعر بالقــدر المتــاح
لحنــا وحيًّــا واصــطفاك علــى الإمــارةِ والفصــاحِ
ولــزانَ مفرقَــك الوســيم بتاجــه القمــر اللِّيــاح
متنكــراً للعــابثين بإرثِــه الضــخم الصَّــراح
قــلْ مــا تشــاء ونــحْ ورِددْ في مــدامِعك السِّحاح
فعلــى شــواطئِ (غــزةٍ) ورمالِهــا وعلــى البطــاحِ
ضــاعتْ هويــةُ أمــةٍ بــين المقــابرِ والأضــاحي
وتلبَّــد التــاريخ في الأجــداث في ظــل الصِّــفاح
يبكــي علــى أمجــاده حــرّ الــدموع لهــن مــا حــي
أيــنَ الشــقيقُ مِــن الشــقيق وأيــن حــي علــى الفِــلاح
شِــرعُ الطغــاةِ عقيــدة حــي علــى خــير السِّــلاح
وعلــى نجيــع بــني أبــي يتنــادمون علــى اصــطلاح
ومــن اجتيــاحٍ كــلَّ يــوم ينــذرون إلى اجتيــاحِ

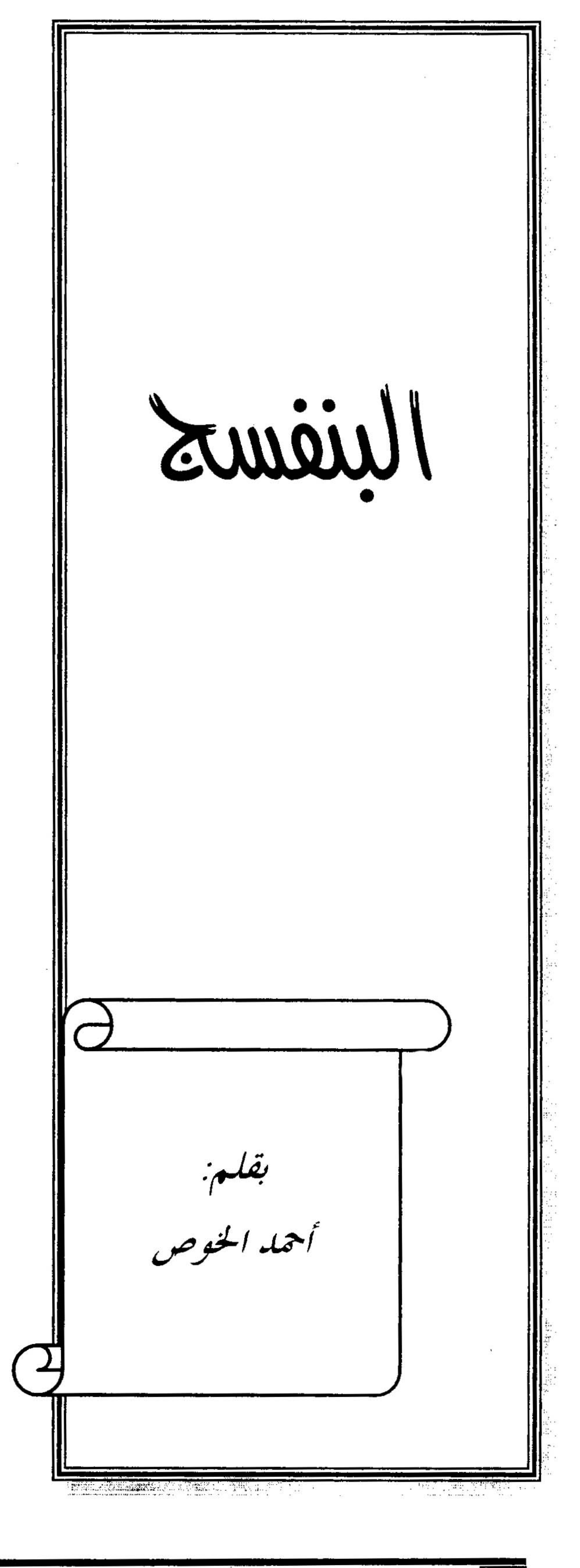






وإلى متـى يبقـى الـدمُ العربـيُّ بـالأمرِ المبـاحِ
أيـنَ الأخـوة والحنـوُّ علـى الجـوارحِ والجـراحِ
وبيـادرُ الشـهداءِ فـوقَ الرمـلِ والغرثـى الطـلاحِ
هـذي مـآتم يعـرب غامـت علـى كـلِّ النـواحي
غـاضَ الـنمير فمـن يـرق علـى الزغاليـلِ الصِّباحِ
وكـأن أرضُ العـرب أرضُ الـدمع صـارت للمنـاح
لـولا الشَّـآم ونهجُهـا العربـي في رَغـم اللَّـواحي
وصـمودَها الضـخم المـدلَّ علـى العواصـفِ والرِّيـاح
وعرينُهـا وزئـير (ضـيغمها) العريـق بكـل سَـاح
وحفاظـه يتوعَّـد الطَغيـان في كـبح الجمـاح
لخلعـتُ عـن وجهـي الحيـاءَ ورحـتُ أقضـي في نـواحي
ومحـوتُ أشـعاري وأقلامـي ودالـيتي وراحـي
وجعلـتُ قلـبي موئـلَ الجلـى وخاصـرتي سـلاحي
وحبسـتُ عـيني لا تَـرى وجهـي فـروَّعني افتضـاحي
سـقطَ الحجـابُ ومـزَّق الأوهـامَ فجـرُ الإتضـاح
يـا عبقـريَّ الشـعرِ والآدابِ في زمـنِ الصِّـياح
لـي مـن بيانِـك جنـة حسـبي بوارفهـا مراحـي
خبـأتُ كرمِـك في الضـمير علـى اغتبـاقِي واصـطباحي
يـا حـاملاً جمـرَ العقيـدة أخضـراً في طـيِّ راحِ
أعطيـتَ زهـوَ ربيعِـك الفصـحى وعيشُـك بالتيـاحِ
عجبـاً أتـنعم في الشـقاء وأنـتَ أنـتَ علـى طمـاحِ
الشـعرُ جـل الشـعرُ نبـعُ النـور في سِـرِّ القِـداحِ
ووهيجُـه نبـأ السِّـيوف علـى الملاحـم والرمـاح
أبـداً سـتبقى (يـا رضـا) علـمَ الفصـاحة والفصـاح
وعطـور شـعرِك في النجـوم هسـيسُ ريحـان وراح



أرأيتم إلى تلك النجوم المتلألئة في السماء الرحيبة التي لا يحدها أحد، ولا يفصلها فاصل؟ فالنجمة تلو النجمة والمجموعة بعد الأخرى من الأقمار والنجوم في كبد السماء ينظر المرء إليها وعيونه شاخصة ومشاعره مجندةٌ أمام هذه المعجزة الربانية في السماء، كذلك ينظر إلى الأرض بالروعة نفسها والإعجاب ذاته حيث نجوم الأرض من ياسمينٍ وزنبقٍ وعلى رأسها البنفسج تضيء لأهل السماءٍ وتنير لهم الأرض ليفرحوا بما يرونه ويمتعون عيونهم به ولا سيما زهر البنفسج الفواح.

فما هو هذا الورد على الأرض؟ وما هو في بطون الكتب؟ وما هو في دواوين الشعراء؟

المعنى اللغوي

فالبنفسج: نوع من الرياحين معروف (معرّب) تكلمت به العرب وورد في الشعر القديم (شف).

البنفسج وزان سفرجل معرّب والمكرر منه اللامات ووزنه فعلل.

بنفسج: نوع من الرياحين عطر الرائحة. وهو نبات من الفصيلة البنفسجية من ذوات الفلقتين الكثيرة التويجات، يزرع للزينة ولأزهاره (مع) تكلمت به العرب وورد في الشعر القديم وله استعمالا طيبة.

أصل البنفسج

الأجزاء المستعملة في البنفسج الزهرة والأوراق.

تحتوي عائلة البنفسج على أكثر من ٢٠٠ نوع تقريباً موزعة بين المناطق المعتدلة والاستوائية.

ذُكر البنفسج في العديد من كتابات هوميروس ونرجيل، وقد استعمل الأثينيون هذه

الزهرة لتعديل الغضب وللزهر هذا مفعول لجلب النوم والراحة.

وفي يومنا هذا يكثر استعمال البنفسج في الأمور الطبية حيث يصنّع منه شراب البنفسج.

استعمالات وفوائد زهر البنفسج الطبية

زهر البنفسج مليِّن لطيف للطبيعة، يعالج أمراض الصدر، السعال والربو، منشط لوظائف الكبد، معالج لليرقان ولالتهاب الكبد الوبائي، يكافح الرشح والجيوب الأنفية، الزهرة والبذور تكافح انحباس الماء في الجسم وتدر البول وتفتيت الحصى والرمل.

تستعمل مستحضرات البنفسج في الطب المثلي، وهو نوع من الطبابة النباتية المعدنية، وفي السنوات الأخيرة استعملت نباتات البنفسج الطازجة عن طريق الفم ولتطبيق الخارجي في علاج السرطانات، وآلام السرطانات، وخصوصاً تلك التي تنمو في العنق والرقبة.

البنفسج في الشعر العربي

أما في الشعر العربي فقد رأى الشعراء العرب أن الزهور والورود من أهم ما يشغلهم في حياتهم ولا سيما زهر البنفسج.

وكيف لا يرى الإنسان النجوم السابحات في السماء ولا يتذكر زهر الأقحوان في رياض البنفسج حيث المشتري تحسبه الزئبق المترجرج وهذا ما عبّر عنه أبو بكر الخالدي بقوله:

أَرعى النُّجومَ كأنها في أُفقها
زهرُ الأقاحي في رياضِ بنفسجِ
والمُشتري وسطَ السَّماءِ تخالُهُ
وسناهُ مثلُ الزئبقِ المُترجرجِ

مسمارِ تبرٍ أصفرٍ ركّبتهُ
في فصِ خاتمِ فضةٍ فيروزجٍ

وهذا أبو الفضل الوليد، الشاعر العبقري الفذّ الذي حلّق في أجواء الخيال ليمزج الواقع وبما فيه من أفراح وأتراح فيأمل من نفسه أن تصبح زهرة جميلة المنظر حيث يقول:

قبّلتها فشممتُ ورداً أحمرا
وضممتها فهصرتُ غصناً أخضرا
لتنفسِي ارتعشتْ وحين تنفستْ
عرفُ البنفسجِ كمَّ ثوبي عطّرا
فبقيتُ حتى اليوم من أنفاسها
أهوى البنفسجَ آملاً إن أزهرا
وضعت على قلبي اليدين فأثرت
فيهِ وارجعتِ البنانَ مُحمَّرا

أما أبو هلال العسكري فينظر إلى النقوش المرسومة مثل البنفسج نثرها على الفضة حيث يقول:

أنظرِ إلى النقش من أطرافها البضّة
مثلَ البنفسجِ منَثوراً على فضّه
أوَ خلتها أخذت أطرافَ خرَّمة
فنضدتهُ على جمارةٍ عضَّةً

وأما سمعت إلى جرمانوس فرحات يحن إلى الوادي المقدس وعيناه تبتهجان لرؤيته حيث يمر النسيم المعطر أو العطر المنسّم فيضئ نوراً وبياضاً ويعطيه البنفسج لون الزرقة فيقول:

أحن إلى الوادي المقدس رغبةً
إليه فمرآه لعينيّ يبهجُ
يمر به ذاك النسيمُ معطّرا
بزهرٍ به ضياؤهُ متبلجُ

تـردى بثـوب مــن زهــور بديعــة
يسـهمه منهـا طـراز مـدبج
بــه الــورد محمــر وآخــر أبـيض
وأخضــره يــزرق منـــه البنفســج
تــراه كطــاووس تجلــى ورأســه
بــألوان باريـــه العزيـــز متــوج

ويقول أبو الفضل الوليد أيضاً: إنه أحب من الأزهار زهر البنفسج لما لعطره من رائحة واللون قد استقر، فكم من البنفسج أصبح باقات تهدى إلى المحبين العاشقين بعد أن كان وردة على شجرة جميلة ورائعة فيقول:

وبــين حنايــا الصـدر صـوت حبيبتـي
رنـيم هــزار فــي ليــالي الهــوى صـفر
لقــد محـت الأيــام آثــار حبنــا
فيــا حبــذا الوجــد الــزمن العبــر
لأنظمهــا عقــداً يليـــق بجيــدها
ولكــن مــا فــي القلــب أغلــى مــن الــدرر
أحبــت مــن الأزهــار زهــر بنفســج
لهــا عطــره واللــون فــي عينهــا اسـتقر
فكــم باقـــة منـــه جنيــت لصــدرها
وكانت كغصــن مزهــر فــي يــدي انهصـر
وإنــي لأهواهـــا وأهـــوى بنفســجا
ذوى بــين نهــديها وفــي مهجتــي نضـر

أرأيتها ودموعها مذروفة وقد أذرت من خلال هذه الدموع الكحل فامتزجا مع بعضهما وأصبح الخدّ بنفسجاً بعد أن كان مـن الـورد وهذا ما عبر عنه ابن معتوق الموسوي فقال:

تبكــي وتـــذي كحلهــا بــدموعها
فيعــود ورد الخــد وهـــو بنفســج
لــم أدر قبــل أرى الــدموع بجفنهــا
أنّ اللآلـــي البـــيض قـــد تتنسّـــج

حتّــام أطلـــب للنجـــوم فــأرتقي
وأهــم فـــي وصـــل النجـوم فـأعرج
وأضــل فــي ليــل الغوايــة والهــوى
وبيـــاض شـــيبي فجـــره يتـبلج
مـــا كنـــت أول مـــدنف بفــؤاده
لعــب الهــوى وسـباه طـرف أدعـج
وإلام تطمعنـــي الحســـان بوصـــلها
وعهـــودهن قضـــية لا تنـــتج
وأقـــول إنّ الـــدهر يســـمح باللقـــا
ونـــوى الأحبّـــة كربـــة لا تفـــرج

وهذا ابن طباطبا العلوي يلبس الأجواء بمختلف أنواعها الثياب الجميلـة والنجوم المتلألئة أو الدراهم فوق أرض بنفسج حيث يقول:

وكـــأن ثـــوب الجـــو صـــرح لائـــح
ونجومـــه درّ عليـــه ترصـــع
أو كالـــدراهم فـــوق أرض بنفســـج
أو نـــرجس مـــن سوســـن يتطلـــع

أما ابن زهر الحفيد فقد نادى العاشقين متعمداً أن يعيشوا حـول البنفسـج ويتمتعـوا برؤيته وأن يشموا رائحته فيقول:

كـــم مـــن خمـــار دون خمـــرة ريقـــه
وعـــذاب قلـــب دون رائـــق عذبـــه
نـــادى بنفســـج عارضـــيه تعمّـــداً
يـــا عاشـــقين تمتعـــوا مـــن قربـــه

وهذه المرأة الموقرة التي حملت المـاء على كتفها وموجة من الريح تأخـذها وثانيـة ترجعها إلى مكانها والمطر الهطل مثل الأفـواه المجروحة فما إن طلع الصباح وهدأت الريـاح وضمّضدت الجراح حتى أصبحت السماء صافية

وظهر البنفسج ممزوجاً بالندى وقد تفتح فيه نور الأقحوان. يقول ابن المعتز:

وموقرة بثقل الماءِ جاءت
تهادى فَوق أعناقِ الرياحِ
فجاءت ليلها سحاً وَوَبلا
وهَطلاً مثلَ أفواهِ الجراحِ
كأنَّ سماءها لمّا تجلَّت
خلالَ نجُومِها عندَ الصَباحِ
رياضُ بنفسجٍ خضلٍ نداهُ
تفتّحَ بينهُ نورُ الأقاحيِ

وابن الساعاتي بخياله الواسع وشعره الأخاذ قد فضل بنفسج الليل على ورد الشفق فقال:

ومُقلة مالي بها من مقلةٍ
يدٌ علَى طول البكاء والأرقْ
لولا خيالات الدجى ما فضّلت
بنفسج الليل على ورد الشفقْ
يا راقدينَ ورقادي بعدهم
أخو الهدوّ مدَّعىً أو مُسترَقْ

ويتحدث هذا الشاعر نفسه عن البنفسج والنرجس وعن الأدواح والجداول التي تجري في جنة الله على الأرض في دمشق الشام في دمشق التاريخ والحضارة فيقول:

ما جلّقُ الفيحاءُ إلاّ جنةً
فضلها وحيَ الغمام المُنزلُ
كم نعيم للغيث في أرجائها
يفصحُ عنها سهلُها والجبلُ
بنفسجٌ مثلُ الخدود قُرّصت
ونرجس ما هو إلاّ المقلُ
بكى الغمامُ فالثرى مبتسمُ
ورقص الدوحُ فغنَّى الجدول
كم جدولٍ باكرهُ مرُّ الصّبا
فهو نسيمٌ والحسام صيقلُ
وبعد كلِّ ناشقٍ لا سامعٍ
ما حدّثتْ عن الرياضِ الشمألُ

وإن الزمان القريب ستعتذر عن هذا البعاد المغفور بعد القرب والاقتراب وها هي أزهار البنفسج تخبئ الشفق حباً وتحناناً عليه وها هو نرجس الزهر منثورٌ في كل مكان. يقول الشاعر حسن الطوبراني:

ناديته وزمانُ القُرب معتذرٌ
عَن بُعده وهَوَ بَعد القُرب مَغفورُ
بنفسج الليل ضمّ الوردَ من شفق
ونرجس الزَهرِ مثل الزهر مثور
فعاطني فعزيز العُمر ما سمحت
به الليالي ولم يهمله تقصير

وهكذا نرى أن البنفسج هدية سماوية إلى الأرض. فكما أن النجوم في السماء مع الشمس والقمر تضيء الأرض في كل منطقة، وفي كل مكان فإن زهر البنفسج مع صغر حجمه ولونه الداكن فإنه عندما يظهر الربيع يرسل أشعته الأرضية لينير السماء بوساطة أقواس القزح الجميلة الألوان والمتناسقة الخطوط المتساوية الأبعاد لأنها جنة الله على الأرض أينما وجد هذا البنفسج.




افتراضات..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

إذا ما افترضنا..
إذا ما افترضنا..
بأنَّك لست حبيبي
فماذا أكونُ..؟
وماذا تكونْ..؟
وكيفَ أقولُ بأنّيَ أُنثى..؟
إذا لم أُخَبِّئْك تحتَ الجُفون..
وما قيمةُ العشقِ، يا سيِّدي
إذا لم يُسافِرُ ببحرِ الجنون؟؟
إذا ما افترضنا..
إذا ما افترضنا..
بأنَّكَ لستَ حبيبي
فما هو معنى الحياةْ؟
وكيف تدورُ الشّموسُ بدونِكَ..
كيف يجيءُ الرّبيعُ بدونِكَ..
كيفَ ستعلو السَّنابِلُ..؟
كيف تُغنّي البلابلُ
كيفَ تَفيضُ الجداولُ؟
كيف سيطلُعُ من شفتينا النَّباتْ؟
وهل تستمرُّ الحضاراتُ؟







والشِّعرُ..
والرَّسمُ..
والنَّحتُ..
هل تستمِرُّ اللغات..؟

*　　*　　*

إذا ما رفعتَ ذراعيكَ عنّي..
وسافرتَ يوماً،
فكيفَ سيُصبحُ شكلُ المكانْ..؟
وكيف أواجهُ كُلَّ الشؤون الصغيرةِ، حولي؟
وكيف أُقاوِمُ رائحةَ البُنِّ؟
كيف أقاوِمُ لونَ الفناجينِ؟
كيف سأمسحُ دمعَ الفساتينِ؟
كيف اقاوِمُ رائحةَ التِّبْغِ؟
كيف سأهربُ من حلقاتِ الدُخَانْ؟
وكيف أُحدِّقُ في ساعةِ البيتِ
بعدَ رحيلكَ..
يا مَنْ سرقْتَ الزَّمانْ؟؟
أُسائِلُ نفسي:
إذا ما ذهبتَ
إلى أينَ يذهبُ ضوءُ القمرْ؟
ومِن أجل مَنْ، ستُضيءُ النجومُ؟
ومِنْ أجل مَنْ، سيفوحُ الزَّهَرْ؟







وَمَنْ سيُمَشِّطُ بعدَكَ شَعْري؟
وَمَنْ سيُمَشِّطُ شعرَ الشَّجَرْ؟
وإن جاءَ تشرينُ..
مَنْ سيُطوِّقُ خَصْري..؟
ويَعْصِمُني من مياه المَطَرْ..؟

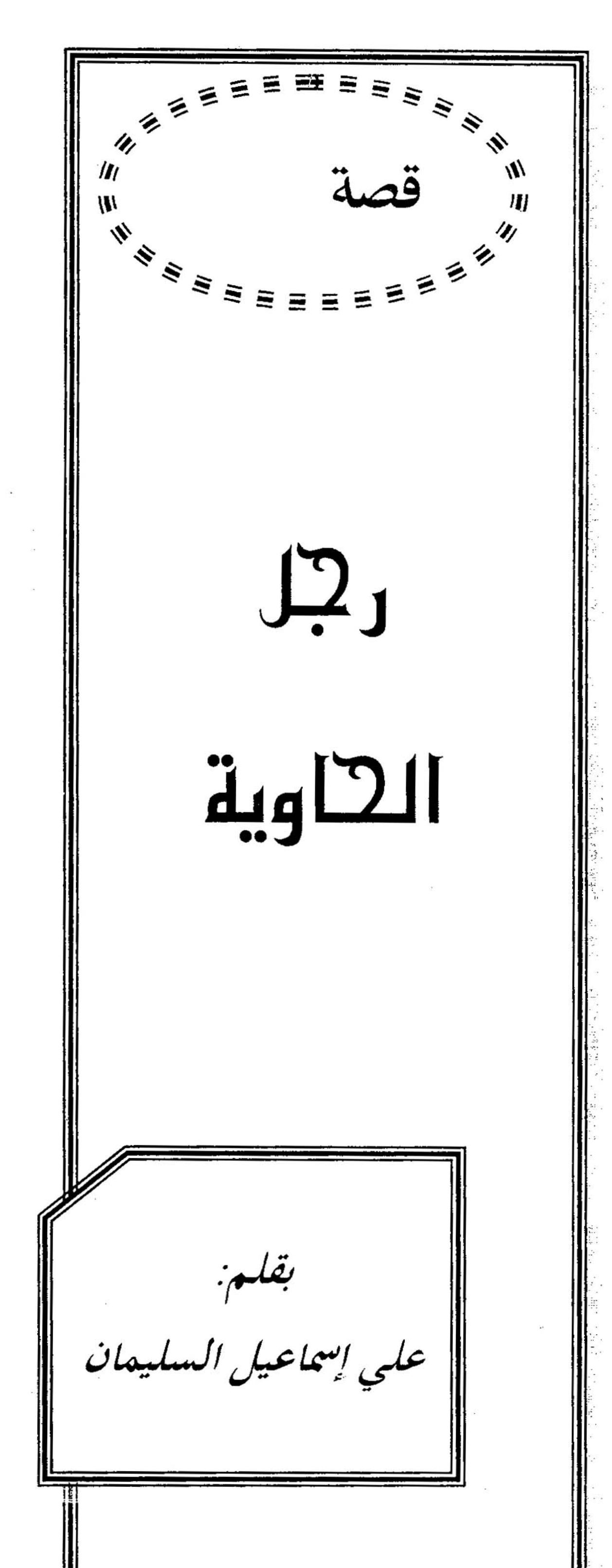
*　　*　　*

أيا رجُلاً..
يتجوّلْ بينَ خلايايَ..
مثلَ القضاءِ..
ومثلَ القدَرْ..
أُسائِلُ نَفْسي:
إذا ما استقلنا مِن الحُبِّ يوماً
فمَنْ سوف يرسُمُ ألوانَ قوسِ قُزَحْ؟
ومَنْ سوف يُوقِدُ نارَ الغُروبِ؟
ومَنْ سيُحرِّكُ شوقَ الوَتَرْ؟

*　　*　　*

إذا ما افترضنا..
إذا ما افترضنا..
ولستُ أُحِبُّ افتراضي..
بأنّكَ لستَ حبيبي..
فمنْ يملأُ الكونَ شِعْراً جميلاً؟
ومَنْ سيُجَمِّلُ أرض البَشَرْ؟؟



في مدن الخطيئة والعجز الوطيء..

تتناسل الخطايا برزخاً من رعاش الرغبات الحبيسة بين منعة السماء وزلق الصلصال.

تتعاوى أذؤب الشهوات المتوحشة في هواجل النفوس فتنهمر وابلاً من هشيم الخيبات.

في مدنٍ يسهر عمال النظافة على قذارتها، وتزدرد فنادقها ذاتُ النجوم عهر مجونها في لجة صمت خجول أخرق يتغنى بما قد كان.

في مدنٍ تزدحم مراقصها وملاهيها، ويتقاسم حدائقها وساحاتها السكارى والمدمنون والعاطلون عن العمل.

في مدن التابوهات المحرمة والطواطم المقدسة ورهاب الكلمة والفكرة والحسرة ونشيج القلب تختنق الصرخات وتتيبس اللهاء.

في مدن الفزع الأكبر وأصنام الجص تتناسخ الأرواح مسوخاً من هيولى العدم وهي تهيم في لا زمان ولا مكان.

* * *

كمجوسيٍ بائس راحِ يضرم حطام الذكريات رماداً في سدفة حلمٍ وردي علّ الأمل يشظّي ما هو آتٍ دماً وقلوباً ونجوماً وأهازيجاً وريش حمامة.

الدراجة العجوز وأكياس الخيش والكوفية الحمراء، ثالوث الشبهات والنظرات الجارحة والأسئلة الصامتة المتعالية تتوارى لثاماً محكماً كرأس نعامة مدفون في الرمال وحركات خاطفة لا مبالية لا تعبأ بفضول العابرين.

* * *

كانِ البدرِ في ألق بهائه يجندل أشباح الضياء شعاعاً واجفاً يجاهد أن يخاتل تشابك أغصان الأجمة في محاولة بائسة لتعويض فداحة غياب الشمس عن قبة السماءً.

وكانت ذوات الأرجل المتعددة تيمم أديم الصلصال في دعة وطمأنينة زائفة تارةً تحت جنح ليل حالك بهيم وأخرى تحت بهاء شعاع حسير خجول في غفلة بكماء من عمر بؤس الغابة العجوز.

* * *

لا أحد يعلم من أين جاء ذلك الشيهم، لكن الكل مجمعٌ بأنه مسكون بغرائز الامتلاء والجنس والبقاء.

تقدم الشيهم القمّام الجائع في غلالة جلبة مفتعلة من عبثية الامتلاء وعدم جدوى البقاء الغرائزي، لكنه

تواطؤ الغرائز مع حاجات الجسد يحيل إلحاح المعدة لعاباً سائلاً وإقداماً يصرف الحواس عن كل متربصٍ في مملكة الظلام.

كان الشيهم يغذ السير في كل مكان باحثاً عن بقايا فريسة، أو جيفة عفنة تركها وحش متخم هنا أو هناك ولكن دون جدوى.

* * *

أكياسٌ من هلام نتن والمدينة – الغاب تضنُّ حتى بقذارتها..

* * *

كان الشيهم يعلم أن ثمة قوىً خفية تسري في سكون الغابة، تلون الصمت المهيب بنوع من الرهبة القدسية والأسئلة الحائرة المبهمة المعلقة على جدران عدم التوقع، لكنها بلا شك قوىً خيرة أو ربما ظالمة تنتظم علائق الأشياء وتخلق المناسيب المتغيرة طُراً لكل حالة على انفراد في نظام فائق يسعى فيه الخطأ إلى العدم، إنما إلحاح المعدة وما علق بجسمه من طفيليات لا ترى لكنها على صغرها تهتك أغشية النسج الحية وتنفذ حتى نوى خلاياها معدلةً أحماضها الوراثية بحمة القرم وشهوة الدم والطين، فكانت بعملها الدائب الرتيب تشكل سداً منيعاً في وجه نزوعه الغريزي للحكمة والتبصر.

صاح متربص ما في مملكة الظلام: "أطعموا البائس الفقير" فانحسر الصوت وجيباً مختنقاً خلف الغصون المتشابكة.

* * *

في الحديقة – والحديقة غابةٌ مهذبة – كانت أشجار السرو والصنوبر والكينا والسنسرخت تنتصب بقاماتها الفارعة مظللةً جزراً من عشب معصفر كأنه طفل قد أدركته عوارض الشيخوخة على حين غرة وهو يمرح في الجنان فقبع مستكيناً بانتظار ملاك الموت، وكانت الشمس قد صبغت ضفائرها الذهبية بورسٍ محنى كعجوز متصابية تحاول إخفاء عوارض شيخوختها بالحناء والمساحيق وترحل متبرجةً في رحلتها اليومية – من المهد إلى اللحد – في زرقة سرمدية.

كان الصمت يخيم على المكان على غير العادة، وكان الجو يعبق برائحة غريبة تتخلل روائح الصنوبر وزهر الآكاسيا والزهور الملونة المتناثرة في المكان، لم يستطع تحديد كنهها أو ماهيتها ولكنها إلى حد ما كانت تشبه روائح الفناء التي تهب من مكان ليس ببعيد، ربما مقبرة جماعية أو زنازين مظلمة تسكن جوف الأرض، حيث كان كل شيء يوحي بقرب ارتطام مذنب هائل بسطح الأرض حاملاً معه الصقيع والجليد القذر إلى حنايا اللاشعور، أو ربما قوالبياً بكراً من مواد عضوية وأحماض أمينية ترسم أغشية خلوية براقة لحياة جديدة تعبق برائحة مليارات السنين منذ النشأة الأولى لهذا الكون، عشية الانفجار البدئي الكبير.

* * *

اختار مقعدا خشبياً قديماً وسط الحديقة تعلوه نخلة قزمة وراح ينظر برثاء إلى أغصانها المتكسرة المتهالكة على جانبيها والعراجين الفارغة الذابلة المتدلية من أعلاها، فاستفزها تطفله وحشريته فصرخت بحنق ومرارة: "هؤلاء الحمقى! قد غربوني عن بلادي وجاؤوا بي إلى بلادكم، بلاد القر والزمهرير، وهاأنذا كما ترى أعيش حياة ملأها الزهد والتقشف كناسك بوذي هزيل يتقوقع على بؤسه بحزن ومرارة فيظن الناس بأنه يمارس رياضةً فكرية غامضة ويتحلق حوله الفضوليون والمتسكعون ويرمقونه بعيون الدهشة ويطرونه بشهقات الثناء، أمد سعفي باستجداء إلى الشمس المتبرجة في حومة قيظها فلا تمن علي إلا بالنذر اليسير من دفئها فأرسل سعفي متحسسة جذعي كامرأة عاقر أصابها هوس الحمول الكاذبة وراحت تتلمس بطنها في كل لحظة أملاً بنبض قلب وليد يشج أحشاءها ولكن دون جدوى، فيغتال الصقيع سعفي المتدلية ويهشمها".

* * *

صورٌ مشوشة وحوارات متهدجة "الأسرة" بدأت تتسرب من سراديب الذاكرة فتنعكس طيوفاً لولبية متداخلة وطنيناً يصم الآذان، حناجرٌ أتعبتها الشكوى وعيون مترقبة حائرة وثرثرات أطفال بلا معنى عن كائنات أسطورية تتسلق جدران الأبنية العالية وتحلق في سماءات المدن الكبرى، تظهر وتختفي بلمح البصر، تخرق قوانين الطبيعة وتتعالى عليها، تحضر عند الرمق الأخير وقت الكوارث والأزمات الكبرى لتنقذ الجنس البشري المهدد بالفناء.

لوحةٌ سريالية جماعية يحاول كل طفل منهم رسم مشهد فيها لتخرج للعالم مذيلةً بعدة تواقيع معيدة إلى الأذهان تلك الإحباطات المغرية لمرحلة السحر التشاكلي في فجر التاريخ الإنساني.

* * *

كانت الحركة قد بدأت تدب في الحديقة، نساءٌ ورجال وضحكات أطفال مرحة، سيقان عارية وملابس ملونة تزركش لوحة الطبيعة بمزيد من الألوان والزخارف.

المقاعد الخشبية التي امتلأت برواد الحديقة بدأت تنشر في الأجواء رائحة الحياة في جدلية فريدة بين البقاء والفناء.

اقترب رجلٌ ستيني من مقعده، كان يلبس بذلة رسمية وشعره الفضي مصفف بعناية فائقة، رمقه بنظرة عابرة وشد حجلي سرواله وجلس بهدوء في الجانب الآخر من مقعده وهو يهمس بصلفٍ: "متشردٌ قذر"

تحت ياقة سترته الرسمية كان يُرى حزامٌ جلدي عريض بدا كأنه حمالة مسدس وقد علقت عليه أشياء تشبه حجباً أو تمائماً بألوان متعددة وعيناً بلاستيكية زرقاء صغيرة ربما لدفع عين الحاسد أو لمآرب أخرى.

لاحظ الستيني القادم من ضجر المكاتب والكلمات المتقاطعة نظرات الرجل الفضولية فبدا عليه بعض الامتعاض وأشاح بوجهه إلى الجانب الآخر وراح يتذكر ماضيه الوظيفي القريب: "صخب المراجعين في صباحات المكاتب ورائحة القهوة الصباحية وقهقهات الموظفات الغنجة وتعليقات الزملاء عن مصطلح أطلقوه حديثاً -مافيا الجباة- والأدراج نصف المفتوحة التي تلقى فيها الرشاوى والعمولات في صمت رزين وإيماءات عيون... السطوة والسلطة وال كن فيكون، فنظر إلى الأفق بحسرة ومرارة بادية وراح يقلب ناظريه دونما تركيز فبدا وكأنه يحاول استعادة صفاء مفقود، فيما الآخر كان يحاول بسكينة مفتعلة وبشيء من الدهشة وعدم التصديق تدبر فكرة ألقيت في روعه للتو "وطن حاوية" حدوده علب التونة والسردين المستوردة الفارغة ونفايات سامة مشعة، مروراً بمسوخ آدمية عديمة النفع لا قيمة لها، فبدا باستغراقه وبأمارات الحيرة والدهشة والقلق والشعور بالذنب التي ارتسمت على وجهه دفعة واحدة كفلاح بنغالي فقير يرى مياه الغمر في دلتا نهر "البراهمابوترا" وهي تبتلع حقله البائس بعد ذوبان جليد مجمدة "كشمير" على سفوح "التيبت" وارتفاع منسوب مياه المحيطات في الأرض المحرورة التي أسكنها جشع أبنائها بيوتاً من زجاج الكربون.

* * *

عندما كان الستيني في بداية حياته الوظيفية التي بدأها متأخرا أصلا بسبب إخفاقاته المتكررة في الامتحانات الجامعية واستنفاذه جميع الفرص المتاحة من دورات عادية واستثنائية ومراسيم جمهورية حتى الرمق الأخير حيث تمكن بصعوبة في النهاية من التخرج بدرجة مقبول وعين مسؤلا عن سكن البنات الجامعي في "جامعة الوليد بن عبد الملك" بصفته خريج علم اجتماع وقد اختير من قبل السلطات المعنية بعناية فائقة حتى لا تتكرر مأساة مدرسة البنات الحربية في ضاحية "الكبرياء" وكان بالفعل يبدي في أقواله وتصرفاته ولهجته الريفية المحببة طيبة وبراءة ومودة مبالغا فيها لمحدثيه وكان يكثر من الحديث عن العفة والشرف وأخلاق القرية والصالح العام والتضحية والمبادئ.

وكان يشاهد بشعره الفضي المميز في الاحتفالات الرسمية وحملات النظافة والتشجير والتزيين في المناسبات.. بينما في قرارة نفسه كان يعتبر تلك الوحدات السكنية البائسة بمثابة مملكته الصغيرة بمخصصاتها المالية والعينية ونزيلاتها حيث يعطي من يشاء ويمنع من يشاء وكيفما شاء بمقدار ما تتيحه ثغرات القانون وإمكانيات التلاعب والتزوير وفي إطار من المشروعية الظاهرة والتعليلات المختلقة المواتية لكل تصرف على حدا.

أما النزيلات فكان يعتبرهن بمثابة الحرملك الخاص بجلالته وخاصة أؤلئك القادمات من القرى النائية في سفوح الجبال وفي أحضان الغابات المطيرة التي تنقي الأجواء من غبار الفبارك الإيطالية وتثقل كاهل السحب بأبخرة نتحها لترغمها على إرواء البوادي والبسابس المقفرة، حيث تلد الضباع تحت أشجار الجوز عندما تنعقد الثمار بعد قرون الاضطهاد فتتقطع بهن السبل في زحام المدينة وتختلف أنماط الحياة وتتغير المعايير الأخلاقية وتتأخر إمدادات الأهل الفقراء أصلا فتتخلى بعضهن عن عفتهن مقابل الاستمرار في نفقات الدراسة وبعضهن بدافع الفضول والاستكشاف في غياب رقابة الأهل و بعضهن استجابة لنداءات الأمومة الجامحة مساءات الشبق العارم و بعضهن أيضا بهدف استمالة الكادر التدريسي أو الإداري للحصول على بعض الامتيازات أو الدرجات في المواد النظرية المعقدة أصلاً، فيما البعض الآخر وهن الغالبية بالطبع يقاومن الإغراءات والمضايقات في الحرم والسكن

الجامعي والأنفاق المحيطة بالجامعة حيث كن يشاهدن وهن يصهلن بأنفة وكبرياء كأفراس برية عصية على التدجين.

وقد كان على من يتصفح سجلات السكن الجامعي أن يمتلك خبرة واسعة في حل الألغاز والأحاجي ليعرف مدلول الشين الحمراء الصغيرة التي كانت تتكرر كثيرا في جوار الأسماء المسجاة عموديا وأفقيا كجثث متصلبة في ثلاجات مشافي القلب في هذه الأيام في القوائم الطويلة لأسماء النزيلات حتى يعلم أن المقصود بها هي كلمة "شموس" حيث كان هذا الحرف بمثابة لوحة تنبيه كتب عليها "ممنوع الاقتراب أو التصوير" كتلك التي توضع في المناطق العسكرية الحساسة لاستبعاد المتلصصين والفضوليين وبالطبع كان يضع هذه الإشارة بجانب اسم كل نزيلة لا تفلح معها لعبة العصا والجزرة إثر استدعائها إلى مكتبه بعذر واه فيعمل على التنكيل بها في كل مناسبة ومن دون مناسبة، حتى جميلة التي اضطرت للبيات في شقة يسكنها ستة شبان جامعيين من أبناء قريتها وهي تردد بيت البحتري:

وَقَديماً عَهِدتَني ذا هَنات

آبيات عَلى الدَنِيّات شمسِ

حتى تكمل امتحاناتها الفصلية إثر فصله إياها من السكن الجامعي بدعوى تأخرها بالعودة ليلا إلى السكن الجامعي عندما كانت تعد حلقة بحث حول كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي لدى إحدى زميلاتها في أحد الأحياء الشعبية في المدينة حيث لم تفلح جميع تزلفاتها وملقاتها ودعائها له بالعمر المديد والصحة و المراتب العليا بحمله على العودة عن قراره المبدأي الحازم هذا بالرغم من الشائعات التي كانت تتردد بين النزيلات عن سيارات التاكسي الصفراء التي كانت تتوقف أمام باب السكن في هزيع متأخر من الليل وعن الأسرّة والوسائد الخالية حيث تبين فيما بعد قيامه بمحاباة بعض المسؤلين بإرساله بعض جواريه لإحياء الليالي الحمراء في استراحاتهم الفارهة خارج المدينة وقد تحدث غير مرة وتحت تأثير النشوة الطارئة التي تحدثها ويسكي "البلاك ليبل" عن هدف استراتيجي بعيد أسماه: "خلق أوليفرشة طغمة مالية سلطوية لحمية" عمادها الأجساد الفتية البضة يشد بعضها بعضا كذرات الفولاذ الحر في سيف مهند ماض مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن فيما فقراء البنجاب بشعورهم ولحاهم المسترسلة وعمائمهم الزاهية يتسولون الدوانق في أصقاع الأرض ، وقد كاد الأمر يتحول إلى تجارة رابحة لولا ظهور الشرطي جركس على مسرح الأحداث في السنة التي حدث فيها الكسوف الكلي لقرص الشمس، حيث فشلت كاميرات الإعلام الرسمي بالتقاط اللحظة النادرة عندما استرعى انتباهها الخلل الفادح الذي أحدثه الكسوف بالساعة البيولوجية للحيوانات الداجنة حيث أوت الأبقار والحمير والتيوس والدجاجات إلى مساكنها في وضح النهار وبالطبع تم استرداد اللقطة النادرة من كاميرات الوكالات العالمية بأثر رجعي، في هذا العام بالتحديد كلف الشرطي جركس بخفارة أسوار المدينة الجامعية ليلاً إثر سرقة جهاز كمبيوتر وبعض الأموال والمستلزمات من مكتب مسؤل السكن ذي الشعر الفضي وقيام أحد اللصوص بالتغوط على طاولة مكتبه، حيث تمت العملية عن طريق إحداث ثقب كبير بالمهدات الثقيلة في السور أثناء إحدى المسيرات الليلية بالمشاعل والأناشيد الحماسية.

* * *

جركس الذي كان يشاهد بسروال "المارينز" ذي الجيوب المنتفخة و"التيشرت" السوداء التي طبع عليها صورة "كليب أرت" رديئة لـ"تشي غيفارا" مع بعض العبارات الأسبانية غير المفهومة و"الفيلد" العسكري في أيام الصيف القائظة في قريته حيث كانت تتدلى من أسفل حزامه الجلدي العريض حلقة معدنية لامعة يسميها رجال الشرطة بـ"الجامعة" ويسميها هو برطانة تركية "كلبشة"، حيث كان شبان القرية يختبئون خلف أشجار السرو ليشاهدوا بسخرية مكتومة معاركه "الدونكيشوتية" مع أشباح عتاة المجرمين بين أشجار اللوز والزيتون قبل أن يعتنق سلك الشرطة عقيدة وممارسة بوساطة مجدية من أحد أسلافه الذين خدموا بالنار والحديد حكومات الانقلابات المتعاقبة، وعندما تسلم عمله الجديد حول أسوار المدينة الجامعية بعد خدمته لسنوات في الأرياف استطاع وفي أيام قليلة بحسه الجنائي العالي وإخلاصه المهني إدراك أبعاد المشكلة فعمل على تحرير تقارير سرية لمسؤلين رفيعي المستوى في العاصمة بعد تيقنه من فساد بعض المسؤلين المحليين وعجز أو لا مبالاة الآخرين، وبالفعل استطاعت تقارير الشرطي جركس فضح الموضوع وأوفدت لجنة تقصي حقائق من العاصمة

لدراسة الموضوع، وعندها تدخلت الوساطات والمحسوبيات وتقبيل الشوارب والذقون لمنع عرض الفتيات اللاتي لم يشر إلى أسمائهن بالشين الحمراء الصغيرة على لجنة من الأطباء الشرعيين ولُفلف الموضوع بنقل مسؤول السكن ذي الشعر الفضي إلى إحدى الدوائر المالية واستبداله بآخر بشعر رمادي و تكليف الشرطي جركس بحل موضوع سرقة دجاج الفلاحين في قرية "عين الحنش" على مرمى قذيفة هاون من حي "وادي السلور" المسكون بلعنة "تمّو" على أطراف "خالصة"، حيث روعت هذه القضية الفلاحين الآمنين وكادت تتحول إلى قضية رأي عام لولا حكمة العريف جركس الذي رقي بعد أن قبض على أحد اللصين والذي يدعى "مرعي اللقلق" وهو "باطوليّ" عاطل من أهالي عين الحنش فيما لاذ الآخر والذي بقي اسمه في محاضر الشرطة وبعد أن أقفلت جميع المحاضر "أبو دجاجة" - والذي ربما سيظهر فيما بعد في مكان آخر - حيث كان أبو دجاجة هذا يغري مرعي اللقلق بسرقة دجاج الفلاحين وشَيه وشرب العنبري على ضفاف "سد السرسوقة" الموشك على الانهيار والذي شيد بالكامل بخبرات وطنية، حيث كان مرعي اللقلق يتكفل بذبح الدجاج أو خنقه وتنظيفه وشيّه على أنغام نشاز تتناهى من مقصف "ابن الباشا" - الذي أدمن ذو الشعر الفضي على ارتياده بعد نقله إلى الدوائر المالية - في الجهة المقابلة من السد، حيث كان صوت وصال النورية يشوب الشينات الكثيرة في بيت الأعشى الشهير:

وَقَد غَدَوتُ إلى الحانوت يَتبَعُني
شَاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ

الذي لا يمل أبو دجاجة من تكراره على مسمع من مرعي اللقلق الذي يطرب كثيراً لجناساته الناقصة وإيقاعه الساحر وتكرار شيناته مع أنه لا يفهم منه شيئاً.

وقد تمكن رجال الأدلة والبصمات في الأمن الجنائي من رفع بصمات مرعي اللقلق وأثر أياد أخرى من غير بصمات عن زجاجات العنبري الملقاة كيفما اتفق في جوار السد وتمكنت أيضا مخابر البحث الجنائي بعد تحليل عينات الـ"دي إن إي" من الدهن المتراكم على أحجار المشوى البدائي و مقارنتها مع عينات الـ"دي إن إي" من البيض المتبقي لدى الفلاحين من إثبات واقعة السرقة الموصوفة بالدليل القاطع، حيث لم يجد مرعي اللقلق الذي عرض على جهاز كشف الكذب غير مرة مناصاً من الاعتراف بالسرقة وتهما أخرى تتعلق بالتسكع والتشرد والإخلال بالآداب العامة بتعاطي المسكرات علنا خارج أسوار مقصف ابن الباشا، وقد تم ترحيله إلى السجن المركزي بانتظار محاكمة عادلة، وعممت أوصاف أبي دجاجة في النشرة الشرطية على جميع الأقسام في البلاد ، وما زال البحث مستمراً.

* * *

أما رجل الحاوية الذي تخرج من إحدى المدارس الصناعية مسلحا بمهنة خراطة و تسوية المعادن التي هي كما قال معلموه اللبنة الأولى في حضارة الفولاذ حيث كان يشاهد وهو يتصفح على عجل نوطات رديئة كتبت بحبر أسود كالح من جراء تكرار نسخها بالماسحات الضوئية المستهلكة حيث تخرج بعدها بتقدير جيد مع أنه لم يرَ مخرطة في حياته وشوهد بعد ذلك بين يدي قريبه "الكولونيل" صاحب الاستراحة الملكية في جبل "مجدوع" والمفاحم الشهيرة في "وادي البطم" التي تمدكم بفحم نراجيلكم التي تفوح منها روائح التنباك المعسل بفاكهة لم تسمعوا بها في نهارات ضجركم الطويلة.

شوهد بعدها بكوفيته الحمراء المميزة مع عصبة من أشباهه يطل من مقطورة حديدية يجرها جرار زراعي وتجر من خلفها جبالة بيتون بدائية بعد أن تذمر قريبه الكولونيل صاحب الاستراحة الملكية والمفاحم الشهيرة من إلحاحه الذي يشبه الاستجداء في طلب وظيفة حكومية وأرسل حلقات رمادية متعاقبة بدأت صغيرة ثم كبرت وكبرت حتى تلاشت بين الثريات الكريستالية البديعة من سيجاره الكوبي الفاخر الملفوف على سيقان العذارى وصعّر خده وزم شفتيه وهو يقول: "ما بالكم أنتم الخريجون الجدد؟ تحسبون الدولة مزرعة أبيكم؟ أين روح المبادرة والقدرة على الخلق والابتكار؟ ألم تسمع بالرجل الأمريكي الذي أسس مع ثلة من الهواة شركة صغيرة للبرمجيات، ما لبثت أن أصبحت أكبر شركة من نوعها؟ وهاهو الآن أغنى رجل في العالم.. دعه يخترع.. دعه يمر!!".

و شوهد بعدها كطيف باهت ببذلة رسمية في طقس قطيعي في صدر صيوان ضخم خلف طاولة واطئة ممتلئة بالورود إلى جانب فتاة غضة بفستان أبيض وحلي ذهبية قاتمة بين جموع بشرية هائجة وموسيقى صاخبة بعد أن ازدهرت مهن البناء في الأحياء الشعبية

والعشوائيات التي كانت تحضّر جميلة فيها مع زميلاتها حلقات البحث حول كتاب "طبائع الاستبداد" وبدا المستقبل لوهلة روضا نديا و من ثم توقفت جميع الجدران المتطاولة بشكل غامض عند السقوف.

شوهد بعدها يدفع بعربة واطئة كتلك التي يستخدمها العتالة العجائز في سوق الفلاحين يبيع الملح الصخري غير الميّود بعد أن رفض العمل بجمع النقطة من بين السيقان العارية لعضوات جديدات في نقابات الفنانين على مسرح مقصف "ابن الباشا" عند أقدام سد السرسوقة الذي ألح عليه جاره ابن حفيظة الطبّال ذو الشعر المنشى "بالجل" والذي يلقب بالأستاذ بقبوله درءً لغائلة الفاقة بعد أن سدت جميع الأبواب، حيث شوهد غير مرة يدفع بعربته الحديدية الواطئة في الأزقة والحارات وبجانب الأطفال الذين يلعبون الدحل في الأزقة الضيقة المعتمة وكرة القدم الشارعية في الشوارع المكتظة والساحات الترابية الممتلئة بالقاذورات حيث كانت عنزات الشيخ "صوّان" المنذورة للأولياء الصالحين تحاول قضم أكياس النايلون المتشابهة الممتلئة بكميات متساوية من الملح وكان يبعدها برفق كرمى للأولياء الصالحين، وكان نداؤه الرتيب المكرور "للمونة يا ملح" يخترق الآفاق ويقض مضاجع السكان في أوقات القيلولة ويفسد تركيزهم في ظهيرات الشبق اللاهبة حين ترتدي النزوات المشروعة لبوس الإحرام القدسي وينقب الخيال العبقري خلف مواشير الذاكرة عن وقود أحفوري للنشوة.

شوهد بعد ذلك في مسلسل تقهقره على درجة جديدة من سلم "دارويني" مقلوب يدفع بعربة خشبية، يبدل الكراسي البلاستيكية المكسورة بأخرى جديدة مقابل خمسين "مصرية"، ثم وهو يشتري أوانيكم المستعملة وأشياءكم التالفة قبل أن ترمى في القمامة، حيث أوقف عربته في وسط الشارع العام ليرفع كسرة خبز رميت في مواطئ الأقدام ويقبلها ويرفعها إلى رأسه ومن ثم يضعها في ثقب في جدار إلى جانب سن لبني وضعه طفل في السادسة وهو يقول: "يا حيط خذ سن الجحش واعطني سن الغزال"، ليلتفت بعدها فيجد العربة في سيارة نقل كبيرة مجهولة "الماركة" ربما خاضت الحرب العالمية الأولى مملوكة للبلدية غبَّ الحملة الشعواء التي شنتها البلدية على "طنابر" النور "البوهيميين" المصنوعة من براميل القطر الإفرنجي الصدئة التي تجرها الحمير الهزيلة بدعوى تشويه المنظر السياحي والحضاري للمدينة، حيث كان بعض النور ممن فشلوا في تعلم مهنة صناعة الأسنان أو صناعة الطبول والدفوف من جلد الماعز ورفضوا التطبيل والتزمير والرقص في المقاصف والأعراس وملوا من بيع المصنوعات الخشبية اليدوية من نايات ومسابح وسيوف وأيقونات بعد أن غرقت الأسواق بالبضائع الصينية الرخيصة قد عادوا إلى أصولهم الرعوية فاتخذوا من الساحات والعرصات المكشوفة المقفرة وطناً نهائيا لخيامهم ومواشيهم وراحوا يجمعون بقايا الخضار والفاكهة التي تنبعث منها روائح خانقة من المحلات البائسة في الأحياء والأسواق الشعبية طعاما لهم ولمواشيهم في غياب الكلأ والمرعى في وطنهم الاختياري الجديد لتقول امرأة شابة منهم بوشم متعدد الألوان حول ذقنها وبرطانة واضحة وهي تهز زمام حمارها وتهم بالرحيل وتقاوم رغبة قسرية في البكاء ممتزجة بتعبير يشبه محاولة احتيال ساذجة كتلك التي يشتهر بها عادة النور: "نحن اسمينا بالنور لأننا اشتققنا من أنوار النبي ﷺ وأنتم تنظرون إلينا باستصغار واحتقار وتعاملوننا على أننا بشر درجة ثانية أو ربما حيوانات وحتى فيما بينكم فإنكم تمارسون شتى أنواع التمييز الطبقي والإثني والطائفي والقبلي بل وربما العائلي وتنشدون العدالة من الدول الكبرى وتنظمون المؤتمرات الدولية لمناهضة التمييز العنصري في الجزر النائية "ومن ثم تطلق ضحكة شامتة وتغادر مسرعة وكأنها قد ألقت بقنبلة موقوتة.

وقبل أن يشاهد لآخر مرة بدا بكوفيته الحمراء ودراجته "الهركل الإنكليزية" المتهالكة وأكياس الخيش في يديه منكبا على إحدى الحاويات في حي راق تتناوشه كاميرات الصحافة الصفراء ليظهر في اليوم التالي على الصفحة الأولى في "الديلي تلغراف" أو "الأوبذيرفر" كنجم للبؤس بوجه مطموس المعالم من بلاد الأبجد هوز أو بالأحرى كسلعة رخيصة يروجها تجار عذابات البشر بوجههم الكالحة كنوطات المدارس الصناعية ألسنتهم التي ترطن بالإنكليزية "الكوكنية" أو بلكنة رعاة البقر بديمقراطية مستوردة على صهوات "الإبراهامز" تفوح منها حمامات الدم وأعراس النجيع.

* * *

"أنا أدري بان وحدنا في الليل..
وجه أخي ومرآتي
وأنّا تقاسمنا دموع الأنبياء معا

وغدر الأخوة الأعداء
تقاسمنا المذابح والحروب معا
وظل لنا البقية.. للقصيدة
والهوى الليلي
ظل لنا.. رعاف الشمس
بين الرمل والصحراء"*

* * *

كان الشيهم قد أرهقه البحث المضني فأخذ يتلوى ويطلق نشيجا مكتوما كعجوز محموم قد أزفت ساعته، وكانت بومة رمادية تحملق فيه بعينيها الواسعتين بشيء من الشفقة المفتعلة ، ثم انطلقت بحركة خاطفة لا تلوي على شيء ناعقة: "لم تترك سباع البرية للشيهم المسكين شيئا يتقوت به"

همهم الشيهم : " ما أحوجنا إلى شمس تفضح ظلام العجز فينا " .

* * *

في الحديقة كان الستيني قد بدأ يستعيد صفاءه، وكان ينظر بحميمية إلى قمم الأشجار وهي تطفوا في بحر من حمرة الأصيل فنظر إلى الرجل بشبه إيماءة وكأنه يقول: "انظر إلى الكائنات تسبح في ضياء اللاهوت" فرد الرجل بنظرة حانقة: "الشمس حريق عظيم وسوف يأتي على جميع الكائنات".

* * *

كان الستيني الذي ربما سيشاهد في إحدى الليالي التي يُرى فيها النجم المذنب وهو يمخر عباب أثير "الغي" بين نجم القطب و صلبان الجنوب منذرا بعصر جليدي جديد – قد ينقذ الأرض من احترارها – جثة طافية في كفن بلا جيوب بجوار أخرى لابن حفيظة الأستاذ الذي أفسدت مياه الغمر" الجل" وبعثرت شعره كيفما اتفق فبدا بوجه ملائكي عشية الانهيار الدراماتيكي المثير لسد السرسوقة، كان صديقنا الستيني هذا مطمئنا في ظل راتبه التقاعدي ومدخراته المتنامية في المصارف و كان يحاول في نوبات توباته المتكررة أن يخلق لنفسه دوراً تبشيرياً بعد أن استغنت الدوائر الرسمية عن خبراته فبدا وكأنه يحاول التكفير بالمجان عن خطيئة ما ويجعل لحياه القادمة معنى جديداً، فيما صديقنا الآخر الذي ربما سيشاهد – في الليلة التي سيختبئ فيها زحل بجبروته وعظمته خلف القمر الخجول المسالم الذي يدغدغ بلطف محيطات الأرض المحرورة بالمد والجزر، حيث يمكن بمقراب بدائي رؤية هالته العبقرية تتلألأ في العسجد القمري – وهو خارج من إحدى غرف الكهرباء المجللة بالرخام الأبيض الموشى برسوم مبعثرة لجمجمة وعظام بشرية بلون أحمر كتب تحتها "خطر الموت" – والتي تفتح جميعها بمفتاح واحد، والتي أصبحت مأوى للمتشردين – بلحتيه الطليقة ورائحة العفونة و"البراندي" الرخيصة المنبعثة من فيه – بعد أن هجر أسرته لأهل البر والإحسان أو ربما لتجار الرقيق الأبيض – والنار تشتعل في أسماله البالية وهو يقفز باحثاً بهستريا عن أحد المستنقعات التي خلفتها مياه الأمطار فوق المصارف المسدودة ليلقي بنفسه فيها، صديقنا هذا الذي وصل إلى الدرك الأسفل في مسلسل تقهقره "كهايتي" بائس في رحلة اللاعودة لحصاد قصب السكر المر في جمهورية "الدومينيكان"، كان يشاهد في الآونة الأخيرة بأسماله البالية ودثاره العفن المكور عشوائيا تحت إبطه الأيسر، تتدلى من يده اليمنى ساعة صينية قديمة يرفعها في وجه أصحاب المحلات التجارية أو المارة محاولا بيعها مدعيا بأنها من الذهب الخالص وأنها سويسرية الصنع وعندما يفشل في إقناع أحدهم كان يحاول أن يستدين منه مبلغا بسيطا يكفي لشراء بطحة براندي وسندويشة فلافل أو حتى يتسوله ولا يعبأ بنهره وتوبيخه أو محاولة إسداء نصيحة سمجة له – بالرغم من أنفته التي منعته من جمع النقطة من بين السيقان العارية في مقصف ابن الباشا في سالف الأيام – بل ربما يثور ويتوعد ويلوح بقبضته في الهواء و هو يقول: "بسيطة" وينصرف باحثا عن مغفل آخر يحاول إقناعه بشراء ساعته الثمينة تلك.

* * *

رفع الستيني الذي يحاول أن يكون مسيحا سبابته اليمنى إلى أعلى يافوخه وراح يحك نقرته برفق لئلا يفسد تصفيف شعره وغرق في تأمل مجتمع طوباوي تسوده العدالة وقلوب عامرة بالحب والإيمان، لكن صورة ستيني آخر سرعان ما طفت في ذاكرته في خضم صور حلقات الذكر وأناشيد الموالدية ورقصات المولوية وراحت تجاهد لتحتل مساحة الصورة كاملة، ستيني مربوع القامة ناحل الجسد بشعر أبيض يقف مذعورا أمام طاولة مكتبه محاولا إقناعه بشيء ما.

كان الستيني الناحل ذو الشعر الأبيض يملك ثلاثة مخازن في حي "القمقم" كتب على الباب الخارجي لأحدها بخط رديء معفر بالتراب "مخازن للإيجار"

وبالرغم من أن هذه المخازن لم تؤجر ولم تفتح يوماً لأن أولاده الذكور قد هاجروا إلى الخليج للعمل أو ربما هرباً من تأدية الخدمة الإلزامية فإن صاحبها قد فوجىء بتكليفه بضريبة دخل متراكمة لعشرات السنين ووصله إخطار بمراجعة الجهة المختصة، وهاهو الآن يرتجف بين يدي الستيني ذي الشعر الفضي محاولا إقناعه ببطلان هذا التكليف ويتناهى إلى سمعه تعليقات باقي الموظفين في المكتب، يقول أحدهم: "هذا المسكين قد وقع ضحية لمافيا الجباة" فيجيب الآخر بتبجح: "صحيح أنه ليس لدينا كاميرات ضخمة أو كادرات أو إمكانيات كتلك التي في هوليود إلى أننا قادرون على أن نري أيا كان فيلم رعب من الطراز الجوائزي بمجرد جرة قلم".

وها هو الستيني ذو الشعر الأبيض يُخرج من جيبه رزمة أوراق نقدية ربما تبلغ عشرون ألف مُصرية كي يسوى الأمر وتختفي ورقة التكليف من السجلات إلى الأبد.

صورة قد تبدو مؤلمة بعض الشيء إلا أنه قد ألف الكثير منها أو ربما أفظع منها وبقيت تطارده كلعنات إلى نهاية حياته فحاول أن يبعدها من بؤرة ذاكرته ويستعيد صورة حلقات الذكر وتواتر أصوات الموالدية ووهذيانات المولوية ولما لم يفلح في ذلك خشي أن تفضحه عيناه فنظر إلى رجل الحاوية مصطنعا ابتسامة صوفية ساذجة مفادها: "الحب حلٌ لكل مشاكل العالم" فتنهد رجل الحاوية: "الجوع كافر"، فرمقه الستيني الذي يحاول أن يكون مسيحاً بنظرة ازدراء وتقزز وكأنه يقول: "مارق زنديق".

* * *

ومن أعلى النخلة القزمة كان يُسمع تغريد حزين لأنثى بلبل ثكلى في تناقض صارخ مع ضحكات الملائكة الصغار الذين كانوا يمرحون فوق أرصفة الحديقة ومسطحاتها الخضراء المعصفرة.

كانت أنثى البلبل التي اتخذت في أعلى النخلة عشاً قد أيست أن يفقس بيضها بعد أن حزم الربيع غيومه البيضاء ونسماته العليلة ورائحة زهر الآكاسيا وهم بالرحيل، فكانت كمن يعزف لحن الوداع في "سيمفونية" ناقصة، هجرت بعدها عشها وراحت تخفق بجناحيها مغرّبة في حمرة الأصيل.

* * *

في الغابة كان ثمة شائعات تسري عن وحش أسطوري ربما غادر "الإينوما إيلش"** لتوه، كان ثمة من يقول بأنه بجسد تمساح ومخالب نسر ورأس فيل عملاق، ومنهم من كان يقول بأنه بجسد عقرب ضخم أو بيسون ورأس حمار غبي بل ربما كان برأسين، ومنهم من زعم بأنه عفريت هائل من الجن على هيئة رجل أبيض أبله أو زنجي مخنث ومنهم من أكد بأن الأم تعامة قد جاءت به لتثأر من آلهة النظام وتعيد العالم إلى عمائه البدئي..

كان الصمت والظلام يخيمان على الغابة العجوز بعد أن غرق البدر في بحر الظلام، وكان الحذر المشوب بالهلع، والترقب الأبله هما سيدا الموقف في حرمة الصمت.

تأويلات وتحليلات سخيفة.. تهويمات وتهديدات ساذجة.. ثرثرة ولغط صامت بلا نهاية.. نعيب غراب أسود يدنس حرمة الصمت: "الغابة تحترق!!!".

فاندفعت الضواري المتربصة تتدافع بهلع وهستريا مبتعدة على غير هدى في الظلام، فيما الشيهم المسكين وهذه الحيوانات العاشبة المسالمة قد استسلمت بغريزة الضحية للنيران.

* * *

في الحديقة كان الليل يحبو ببطء مشوبا ببقايا حمرة الأصيل فوق أسفلت المدينة فبدا كمسوح كاهن "كاثوليكي" حليق يرسم بأصابعه الأربعة صليبا بحجم الأفق الغربي.

* * *

وكانت "أندروميدا" الجارة الشهوانية الشبقة العاقر الحاقدة التي تحسد أمنا الطاهرة "درب التبانة" على أبنائها بالرغم من عقوقهم لها، تتربص بأمنا الطاهرة داعية إياها بعهر وإلحاح شديدين إلى علاقة مثلية تبدأ برقصة رومانسية وتنتهي بعلاقة آثمة وحمل ضاو من ثقوب سوداء ودودية تدفع بمجموعتنا الشمسية إلى عتبات مجهولة في الكون أو تبتلعها في مهرجان دموع تمساحية لتشبع نهم العدم.

---

* من قصيدة "حلم على حافة الصيف" للشاعر الفلسطيني الراحل "فواز عيد" مجلة المعرفة السورية العدد "٣٥٩" آب ١٩٩٣.

* * أسطورة الخلق "البابلية".




سلي الفوارسُ عنِّي

شعر: نظير جابر

ملَّتْ نواقيسُ أوجاعي من الألمِ
واستسلَمتْ لعُرا حزني ونزفِ دمي

أصارع الغدرَ من أغصان داليتي
والقهر يرعد في رأسي وفي قَدمي

سبعون عاماً مشتْ تهتزُّ تاركةً
وراءَها راسياتِ الغُبنِ والظُّلَمِ

أطيرُ في عاصفاتِ الريح يسبقني
إلى جَناحِ الثُّريَّا والثّرى عَلَمي

كم أصطلي من شرور النّاسِ في بدني
والخيرُ والبِرُّ والإحسانُ من شِيَمي

مواكبُ الشِّعرِ أولتني بيارقَها
وحوَّمتْ تنشد الأتراحَ في خِيَمي

مالي أرى النّكباتِ الحمرَ تحملني
لخندقٍ من لظى دوَّامةِ الحِمَمِ

صحبي حفاةٌ عراةٌ ضمَّ شملَهمُ
سنابلُ الحبِّ والإيمانِ والقَلَمِ

تعثرتْ في شعابِ البيدِ قافلتي
فحمحمتْ فَرَسي في زحمةِ الهمَمِ

رُفِّي بيارقَ آمالي على فَنَنٍ
يلهو ويمرحُ في فيضٍ من النِّعَمِ







وحـــدي أُلملـــمُ أشـــتاتي وأنشـــرها
وأمضـغ البسـمةَ الصَّـفراءَ مـلءَ فمـي
أدور في فجـــواتِ التِّيـــهِ أغمرهـــا
بوابـلٍ مــنْ غيــوم الـدَّمعِ والسَّـقَمِ
حامـتْ علـى راعشـات الليـلِ أخْيلَتي
فغـرَّدَ الشِّـعرُ في صـحوي وفي حُلُمـي
كـم نجمـةٍ في فضـاءِ الظُّهـرِ أرقبهـا
تحـومُ كـالطَّيفِ في جَـوِّي وفي دِيَمـي
أكلّمـا ارتعشـتْ في القلـبِ وسوسـنةٌ
أقـول: لا أشـتهي في الأشـهرِ الحُـرُمِ؟
وكلّمـا زأرتْ في الـنفس عاصـفةٌ
أقـول: ثـوري فهـذا مـن جـوى كَلِمـي
وكلّمـا وشوشَـتْ في الكهـفِ نازلـةٌ
أقـول:" تشرب مـن ضَعْفي ومـن هَرَمـي؟
وكلّمـا قمـتُ منهـا شـامخاً أَنِفـاً
تشـدّني عاديـاتُ الجـوعِ مـن لَمَمـي
أسـتغفرُ العـزمَ إنْ لاحـتْ بيارقُـهُ
ورفـرتْ تسـتقي مـن منهـلِ القِـيَمِ
اللهُ أكْبَـرُ. هـلْ لـي أن أسـبِّحَهُ
مهمـا تعثـرتُ في الأشـلاءِ والـرِّمَمِ؟
رهيفَـةٌ تلـك أطـواري ويعـرفني
أهـلُ الحميّـةِ مـن شِعري ومـن سَـأمي
قطعـتُ مـن غاشـياتِ اللَّيـلِ أوردتـي
ورحـتُ أسـبح في بحـري وفي نَغَمـي







أطـــوف بـــين رهانـــاتي وأشـــعلها
كـــأنني عـــن غيـــوبِ النازعـــات عَـــمِ
مـــا لـــي أحـــدّقُ في بحـري بـلا سـفنٍ
وقـــد قطعـــتُ علـــى أمواجـــهِ رَحِمـــي؟
لا. لســـتُ أشـــكو إلى فرعـــونَ عَـــاقبتي
جـــرِّدْ حسـامكَ يـــا فرعـــون! واضـــطرمِ
أقـــول للتّـــاج مـــن فرعـــون: يـــا ملكـــا!
جمِّـــعْ جيوشَـــكَ في الغـــارات وانـــتقمِ
بـــيني وبـــين ريـــاحيني وقـــافيتي
عشـــقٌ يـــوزِّع أطيابـــاً علـــى الأُمَـــمِ
إن كـــان نـــوري ســـراباً خادعـــاً وَلِهـــاً
فـــاللهُ موئـــل أنعـــامي ومعتصـــمي
هلـي لـي بـأن أسرق الآهـات مـن قمـري
وأن أرشَّ عطـــورَ الجـــود والكـــرم؟
وَجْـــدي وخمـــرةُ أفراحـــي ومـــنقَلبي
غاصـوا مـع الـزمنِ المسـحوقِ في القِـدَمِ
صـــبري وتلَّـــة أوهـــامي وســـاريتي
تصـــارعوا فهـــوَت في قاعِهـــا جُرُمـــي
مهمـــا تباعـــدتُ عـــن رُكـــني وســـاقيَتي
أبـــقَ الأليـــفَ لهـــم في السِّـلْمِ والسَّـلَمِ
وإن عَصَـــتْ في رحـــابِ السَّـاحِ حـــاميتي
وطـــوّقتني فـــإني غـــيرُ منهـــزمِ
مازلـــت أحيـــا علـــى وقـــع السـيوف ولا
زالـــت ركـــابي تشـــقُّ الـــدرب للـــهرمِ




إنطاق التاريخ الأندلسي الجميل

بقلم:
فاضل السباعي

صدر عن دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، بدمشق مؤخراً، كتاب بعنوان (الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد)، من تأليف الباحث المغربي الدكتور أحمد الطاهري، الذي يرأس (مؤسسة الأدريسي المغربية – الإسبانية للبحث التاريخي) ومقرها مدينة إشبيلية بإسبانيا.

وقد أقيم في المغرب، في (بلاد الريف) شمالاً التي ينتمي إليها المؤلف، حفل شارك فيه العديد من الباحثين العرب والإسبان والفرنسيين، ومنهم ناشر الكتاب بدمشق الأديب الروائي فاضل السباعي، المعنيّ بالشؤون الأندلسية، الذي كتب مقدمة الكتاب، ونظراً لأهميتها وما تنطوي عليه من معلومات قيمة تتعلق باقتصاد الأندلس والبُناة التحتيين في أيام العزّ الحضاري، فإننا ننشرها..

١- لمحة تاريخية:

لا يغيب عن مفكرٍ أو باحث أنّ الإسلام ما دخل مصراً من الأمصار إلاّ ثَبَتَ فيه، لم يَشذّ عن ذلك إلاّ الأندلس، التي اعتنق أهلوها الدينَ الجديد ونطقوا بلغة القرآن الكريم، ثمّ كان أن سقطت غرناطة، آخرُ معاقل الأندلس، في أيدي المحاربين الإسبان، الذين لم يكفّوا عمّا أسْمَوه "حرب الاسترداد"، وانتهى الأندلسيون – الذين كانت تسري في عروقهم دماءٌ إسبانية بمقدار ما يسري في الدماء العربية – إلى أن يَخرُجوا بدينهم ولغتهم إلى المغرب، الذي كان قد أدّى قسطاً كبيراً من المدافعة والمساعفة، وإلى أنحاء من ديار الإسلام؛ وأما مَن بقي منهم في إسبانيا، بعد التعذيب والتغريب، فقد تعرّضوا للتشديد والتشريد، قبل أن يُرغَموا على التنصّر؛ فذاب بذلك الأندلسيون في خضمّ المجتمع الإسباني، الآخذ آنذاك في التكوّن والتشكل[1].

ونحبّ أن نشير إلى أنّ الإسلام، في كريم خصاله، كان متسامحا، فلم يعمل عند الفتح ولا بعده، على "أسْلَمة" السكان، هؤلاء الذين فضّلوا العيش أحياناً في ظل الدولة الأندلسية المتحضّرة على أن يعيشوا في بعض الممالك المسيحية في ذلك الجانب من شبه الجزيرة الإيبيرية؛ وأما كردينال طليطلة، خيمينيس دي سيسنيروس المتمتّعُ باحترام الملكين الكاثوليكيّين فرناند وإيزابلا، فقد حدّثتنا المصادر التاريخية عن بالغ نشاطه في التنصير والتهجير، وعن اقترافه تلك "المحرقة" الثقافية الهائلة في ساحات غرناطة، حيث التهمت النيران ما يزيد على مئة ألف مخطوطة عربية في أدنى تقديرات المصادر اللاتينية ذاتها[٢].

٢- أحمد شوقي وأحمد الطاهري:

خرج العرب من الأندلس، ولكنّ الأندلس لم تخرج من فكر العرب ومن وجدانهم الجَمَعي؛ ذلك أنّ ما سطره الأندلسيون، وكذلك إخوانهم المشارقة، ظلّ ثاوياً في طيّات الكتب، فلما قُدِّر لشاعر عربيٍّ معاصر أن يُقيم في الأندلس الغاربة شمسُها، وأن يَهيم حبّاً بها وشغَفاً، أخذ يُنشد:

يا نائحَ الطَّلْح أشباهٌ عوادينا
نشْجى لواديكَ؟ أم نأسى لوادينا؟

وخرِيدةً أخرى مطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي
صُوِرت من تصوُّراتٍ ومسٍّ[٣]

أعاد الشاعر المصري (من أصول كرديّة) أحمد شوقي، الأندلسَ إلى الذاكرة العربية، عبر شعر أرسله، وهو في منفاه بإسبانيا، وعلى وجهِ التحديد في شماليّها، برشلونة؛ واليوم يُعيدها إلى الأذهان الباحثُ المغربي (من أصول أمازيغيّة) أحمد الطاهري، عبر كتاب نثريّ، قد ألّفه، وهو في مقامه بإسبانيا، وعلى وجه التحديد في جنوبيّها: إشبيلية.. وأيّ كتاب!

لقد استحضر الطاهري، في كتابه هذا، الماضي، وأنطق التاريخ، ورسم الأشكال والألوانَ والظلال بريشة بارعة جامعة، حتى لقد تجلت لنا الحياة الأندلسية في أيّامها، وفي يوميّاتها التفصيليّة، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. استحضر لنا عالماً يأبى أن يختفي من ذاكرة العرب، على حين يحتفي به إسبانُ اليوم أيّما احتفاء، فهم يمسحون التراب عن الآثار، ويرمّمون الصُّروح، ويرفعون الصوتَ في الإعلام اعتزازاً حضاريّاً وإغراءً سياحيّاً.

٣- حكايتي مع هذا الكتاب:

في صيف ٢٠٠٦ قدّمت إليّ الباحثةُ في التراث المعماري الإسلامي، الدكتورة نجوى عثمان، لدى عودتها من إشبيلية، كتاباً حمل عنوان "دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، عصر الخلافة والطوائف" هديةً من الباحث المغربي الدكتور أحمد الطاهري[٤].. فشدّني الكتاب بما فيه من أسباب التقصّي والتتبُّع في القضايا التي يطرحها، وخاصة تعاطفه الجليّ مع طبقة العامة في المجتمع الأندلسي الذي كان.

ثمّ إني تلقّيت بعد حين من المؤلِّف الفاضل، عبر "الناسوخ" (الفاكس)، رسالةً يُحدّثني فيها عن أنه فرغ لتوّه من تحرير المتن الكامل لآخر مؤلّفاته في تاريخ الأندلس، ويتعلّق الأمر بدراسة مطوّلة تناولت "التجارات والصنائع والمعاملات بالأندلس خلال عصر بني عبّاد، من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الحجْر السلطاني"، ما أسفر - يقول - عن جملة من النتائج الجديدة، ليس فقط في حقل الدراسات الأندلسية بل أيضاً ما يتعلّق بأصول نظم

وحضارة دار الإسلام أيام عزّ العطاء الحضاري، إذ تناول تاريخ التجارة والتجّار وعامة الباعة وأهل السوق والصناعة والصنّاع وأهل الحرف والمعاملات وأرباب الأموال، وما يرتبط بذلك كلّه من وسائل وتقنيّات ونظم.

وأعترف بأنّ هذا العرض لموضوع الكتاب قد أثار عندي عاطفة الحبّ التي أكنّها نحو الأندلس، مضافاً إليها حبٌّ آخر للشّعبيّين من أهل الأسواق(٥).. فرجوت أن أجد في الكتاب الموعود صورة مستعادة للعامة الذين كانوا يتحرّكون هنالك في فردوسنا الذي فقدنا! ولقد سبق أن عرفنا كثيراً من أخبار الملوك والسلاطين والشعراء والفقهاء والحكماء، وأما "أصحابُ الأسواق"، والعمّال (ويُسمّيهم الطاهري أحياناً "العمّالين")، أولئك البُناة التحتيّون للمجتمع، وبتعبير آخر: المُسْهمون في تشييد أُسس الحضارة، المجهولون، فقليل ما نقف على أخبارهم في المصادر. فبادرت أكتب إلى الطاهري مرحّباً(٦)..

٤- مطارحات.. في الشؤون الأندلسية:

ثمّ إني التقيت الطاهري بدمشق(٧)، فوجدته ممتلئاً معرفةً بالشؤون الأندلسية، مسكوناً حبّاً بمُدُن الأندلس وأحيائها، وقراها وجبالها ووهادها، ومائها وشجرها وترابها وسمائها.. بالاختصار رأيته مزداناً بمعرفة ما مرّ بالأندلس، من حوادث الزمان وأحداثَ الدهر.

وكنّا، ونحن في بيتي الدمشقيّ في سفح "جبل قاسيون"، نتطارح الحديث حول الأندلس. ووجدتني حريصاً على أن أُبدي إعجابي البالغ بـ"معارفه الأندلسية"، فكان من لطف شمائله أن بادلني الإعجاب، مع أني عُنيتُ بالأندلس عن بُعد، عبر الدراسة والمتابعة ولم يُتح لي أن أطأ ثراها، على حين أنه يقيم فيها، يقطن في إشبيلية "الحمْصيّة"، ويبحث ميدانيّاً، ويُعاني. أجل.. في ذلك الربيع، كنّا نتحادث، ونأسى على ما فات الأجدادَ، أو ما فوّتوه هم على أمّتهم من حظوظ، في أزمان التراجع والنكوص، هذه التي تعيش أمّتنا مثيلا لها في عصرنا الراهن.

والذي كان، بعد تلك الأيام الربيعية، أنّ الطاهري، سافر إلى حلب الشهباء، أنجز هناك مهمّته، وعاد مسرعاً إلى دمشق الفيحاء، وهو أكثر شوقاً إلى وَصْل ما انقطع من تلك المطارحات(٨).

٥- حُصيّات ملوّنات في كيزان ماء:

وتلقّيتُ نصَّ الكتاب، الذي استغرق العملُ فيه أحد عشر عاماً، اختزلتها بقراءته في أحد عشر يوماً.. وشاء لي خيالي أن أتصوّر المؤلف وقد اقتعد شاطئاً، يُفتح ما بين يديه من أصداء، مستخرجاً اللآلئ، مُسلكاً إيّاها في عقد طويل طويل..

فهو يُحدّثنا، مثلاً، عن "حَصَى ألْمَريّة"، "فإنه كالدُرّ في رونقه، وله ألوانٌ عجيبةَ، ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء!". فحملني هذا القول منه على أن أتصوّر أسرة أندلسيّة، وفي ركن من بيتها بإشبيلية التي كانت، كوزُ ماء عذب، يَشف بلّوْرُه عن تلك الحُصَيّات الدُّرّيّة بتلاوينها البَديعة.

٦- في "سوق الخيّاطين":

ثمّ إنّ الطاهري يدع هذه الحصى، الراسبةَ في قاع الكوز عند تلك الأسرة الأندلسية الرافلة بأسباب النعيم، وينزل بنا إلى الأسواق، حيث يقوم العمّال بخياطة ثوب أندلسي. إنه، بعد الأخذ بعين الاعتبار أنّ "الشُّقّة" (قطعة القماش) يَقصُر ذَرعُها عقب بلها في الماء، يتسلّمها مَن يُسمَّون "القطّانين"، الذين يقومون بتقطين الثوب وتبطينه بأن يجعلوا القطن في مواضع منه؛ ثمّ يتناوله غيرهم ويعمدون إلى "تبنيقه"، بأن يُدخلوا البنائق (ما يُزاد في الثوب ليتسع) إلى بعض جوانبه؛ وهناك "الحشّاؤون"، يُقيمون

المحاشي ويُوَسِّعون أطواق الثوب؛ وإنّ من الأثواب ما يخضع لعناية إضافية عند "الفرّائين"، الذين يُعانون فِرَاءَ الأدَم والجلود؛ و"الشكامون"، الذين يضعون القنائر والشرائط من الجلود والشعر؛ ولا ينسى المؤلف مرحلة إثبات الأزرار.. لقد رأيت الطاهري، في استخلاصه هذه المعلومات، "يُعاني" الرجوعَ إلى سبعة من المصادر العربية القديمة!

ثمّ يشير إلى ما دأب عليه حُذّاق النسّاجين الأندلسيين من الوَشْي على الحرير. وقد شهد عصر العبّاديين "اتساعاً منقطع النظير في أساليب التبنيق والتحسين والتزيين، يُمارسه مَهَرة الفعَلة على أصناف الثياب الراقية.. كما يعمدون إلى تزيين الأثواب بخيوط الذهب.. منها ما يكون مطعَّماً بـ"الذهب المغزول"، ومنها "المرقوم بالذهب"، ومنها "المُخَرْطَم بالذهب"، ناهيك عن الأثواب المنمّقة بالعقْيان (الذهب الخالص) والمكلّلة بأصناف النفَائس والأحجار الكريمة.. ومنها المثقلة ذات الصور المقيِّدة للألحاظ".

٧- ... ويَنطق التاريخ!

ويَخرج الطاهري من الأسواق لينطلق بنا إلى عالم أرحب، ذلك الذي عَمَّره الأندلسيون بالفنادق والمطاعم والحمّامات والحوانيت والأسواق، ممّا يحتاج إليه التجار والمسافرون من خدمات على طول مسالك السفر، وقد بلغت من الكثرة في ربوع الأندلس، حتى شاع الخبر في الآفاق بأنّ المسافر "حيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والأودية ورؤوس الجبال، لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت [السمك] وغير ذلك".

ويشير على تحسُّن معاش الفلاحين ورُقيّ مظاهر حياتهم العامة، يتجلّى ذلك في الخصائص المعمارية لمساكنهم، التي غدت، خلال عصرَيْ الخلافة والطوائف، "تهايةً في الجمال، لتصنّع أهلها في أوضاعها، وتبييضها لئلا تنبو العينُ عنها".

ويبلغ إنطاقُ التاريخ حدَّ الشَّدْو والتغريد، حين يُحدّثنا عن "وادي إشبيلية" (نَهرها): عن الرصيف المحتضن للمراسي والمقصود بالتجارات وأصنافَ المراكب المحمَّلة بالسِّلَع والخيرات، وقد حُصِّنت مداخلُه بالأبراج والمنارات، حتى قيل: "ليس في معمور الأرض أتمُّ حُسناً منه".. وعن كثافة الملاحة النهرية على طول مجرى هذا النهر، يقول: وكانت القوارب تسير فيه - عدا النقل والتنقل - "للنزهة والسير والصيد"!

أليس من حق الإسبان، اليوم، الأكثر وعياً للحقَب التي مرّت بها بلادهم، أن يحزنوا لأن الأَندلسيين، أرقى شعوب أوروبة في القرون الوسطى، قد تعرّضوا للتهجير إلى الخارج وللتدمير في الداخل، مما جعل عجلة التقدّم في إسبانيا الأندلسية تتوقّف، على حين استفاد الأوروبيون من كلّ المنجزات الحضارية التي قدّمها الأندلسيون؟!

٨- استحضار التاريخ، بلحمه و.. عصبه!

وفي التنقيب والتنقير في صفحات التاريخ، نرى الطاهري يستخرج لنا الحكايات والطرائف والغرائب، فيها ما يُثير العبْرة، وفيها ما يُسيل العَبْرة، وأيضاً ما يبعث على العجب والاستعجاب.. وذلك عبر حديثه عن الأدب، والسياسة، والصناعة والتّزيُّن، و.. عن كبير السُّرّاق لحظةَ كان يُنَفَّذ فيه حُكم الموت!

في التدليل على ارتفاع مكانة الحرْفة في المجتمع الأندلسي، عَثَرَ المؤلف في ثنايا التاريخ على حكاية تتصل بحاكم إشبيلية المعتمد بن عبّاد، الّذي كان قد عُدَّ عميداً لملوك الأندلس زمنَ الفرقة. وهي أنّ أحد أولاده، المسمّى "فخر الدّولة"، أصابته، لا نقول: حرفة الأدب، بل "حرفة الصِّياغة"، أجل أن يعمل الولد صائغاً! فما كان من الأب إلاّ أن أقدم، غير متحرِّج، على توكيل مَن يُعلّم ابنَه أسرار هذه

الحرفة ويُدرّبه على إتقانها، "فأمر بإحضار الصِّناعة إلى القصر، وعلّم فخر الدولة الصِّياغة، وحَذق فيها".

٩- الزيت.. والراس المُدَبِّر!

ولعلّ ممّا يُسيل العَبْرَةَ حالةَ الشاعر ابن الزَّقّاق الأندلسي، الذي كان "يسهر في الليل، ويشتغل في الأدب، وكان أبوه فقيراً جدّاً، فلامه وقال له: نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه!"[٩].

ولمّا وقع الهَيْج في قرطبة، بأن "قامت العامةُ على السلطان ولَبُّوا السلاح، كان شيخٌ [حدّادٌ] جالساً على كيره يعالج صنعته، فقال: ما بال الناس؟ قالوا: قامت العامةُ على السلطان! قال: لهم رأس؟ قالوا: لا! قال [مخاطباً أجيرَهُ]: شقّ الكير، يا صبيّ!، فذهبت مثلاً!"[١٠].

١٠- تنبيهٌ شديد، ونُصحٌ سديد:

وبلغ التَّزَيُّنُ باتّخاذ لباس الحرير أن نبَّه أحدُ الفقهاء واحداً من أصحابه الأثرياء، كان يتردّد عليه وهو بثياب الخزّ، قال: "إنْ كنت تحبّ أن تختلف إليّ بثياب الكتان، وإلا فلا تأتني!". ويبقى هناك النصحُ الذي وجّهه أحدُ العوامّ من أولي البصائر إلى المعتمد بن عباد وجهاً لوجه، وقد تزايدت مخاطر ركوب البحر بسبب تصاعد تهديدات أساطيل دار الحرب المعادية للملاحة الأندلسية، فكان ممّا قال له: "عليك أن تتّفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر.."[١١].

١١- "البازي الأشهب"، يَسرق وهو يُصلب!

ومن الطرائف التي لم يُغفلها الطاهري؛ حديثه عن أنه كان، في زمان المعتمد، السارق المشهور بـ"البازي الأشهب"، "وكان له في السرقة كل غريبة، وكان متسلطاً على أهل البادية، وبلغ من سرقته أنه سرق وهو مصلوب!"[١٢].

١٢- عينٌ تحتضن الكتاب:

في بحث كنت قدّمته، في عام مضى، في إحدى الندوات العلمية، عن العالم الأندلسي الإشبيلي "أبي العبّاس النباتي"، وقفت في بعض المصادر التاريخية على وصف له راق لي: أنه كان – عدا دأبه على البحث عن الأعشاب في أنحاء الأندلس وخارجها (حتى وصل به السفرُ إلى أقطار المشرق، خراسان، مدينة "مَرْو") – "جمّاعةَ كتب"!

وإني أرى اليوم، أحمد الطاهري "بَلَديَّه" القاطنَ إشبيلية، يُضاهيه في خصاله: في الدأب على البحث والتقصّي مع جَمْع الكتب أيضاً، ولعله يزيد عليه في أنه يُلمّ، بنظرات منه سريعة، بما في المكان الذي يكون فيه من كتب مرصوفة فوق أرفف الخزائن! لقد حمل لدى عودته إلى إشبيلية من دمشق الكتبَ والموسوعات الطوال، التي لم ألبث أن رأيت، في الطبعة التالية من كتابه الواصلة إليّ عبر البريد الإلكتروني، شواهدَ منها، مثل: "كتاب الأموال" لابن زَنجَويه (إصدار الرياض)، و"الفلاحة النبَطيّة" لابن وَحْشيّة (دمشق)، و"تكملة المعاجم العربيـة" للمستشرق دوزي (بغداد)، و"كتاب العين" للفراديهيد (طهران)[١٣].

١٣- "المستريحون في ظلال التقليد":

وللطاهري، في حيازته للكتب ودراستها، رأيٌ فيما يَتبعه الباحثون العرب في دراستهم للتاريخ الإسلامي. فهو، مع أخذه بما أنجزه غيرُه من الباحثين المعاصرين والسابقين، لا يتوقّف عند ذلك، بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد. ولا يتردّد، في مجال البحث في التراث العلمي خاصة، في انتقاد أولئك "المستريحين في ظلال التقليد، الذين لم يسأموا، على مدار قرن مضى، من ترديد المقولة الاستشراقية الشائعة بشحّ المادّة المتعلّقة بالتاريخ الاقتصادي، بينما تظل مئات المصنّفات والرسائل والتقاييد،

الموضوعةُ في مختلف حقول المعرفة، في انتظارٍ من ينتبه إلى مضامينها العلمية".

وإنّا لنراه، في كتابه هذا، يُوَفَّق في أن يستخرج مادّته العلمية، التي أقام عليها كتابه، بانياً بها عالماً من "الثقافة الاقتصادية" متعدّدة الوجوه والمستويات، فكان ممّا نبَّه عليه في ذلك، أنّ الأندلس استطاعت أن تتحكم في "المبادلات التجارية" بين دارَي الحرب والسلم، فمراكب النصارى واليهود ظلت تتردّد على المدن الأندلسية، هذه التي استفادت من فتاوى الفقهاء في قواعد الصلح والألفة!

وهو ينصح الباحثين بأن يتجاوزوا، عند تنظيرهم لنشوء "الرأسمالية التجارية"، أنّ انطلاقتها كانت من المدن الإيطالية، كما هو رائجٌ عند المهتمّين بالتاريخ الاقتصادي، وأن يتنبّهوا إلى أهمية الحلقة الأندلسية - المغربية، التي كانت وراء التلاقح، خلال هذا التاريخ المبكر، "بين نظام التثمير التعاقدي وهو في أعلى مستويات تطوّره، وبين الرأسمالية التجارية الإيطالية وهي تخطو أولى خطواتها".

١٤- عناوين، ومداخلات:

وكما يرى القارئ، فإنّ الكتاب يتألّف من مقدمة، يليها بابان إثنان مجموعُ فصولهما خمسة عشر، قد احتشد في كل فصلٍ منها من المعرفة ما جعله أشبهَ بكتلةٍ من المعلومات، متراصّة متماسكة، لا تَنْفَتحُ إلاّ دفعةً لمن يقرأ الفصلَ من أول كلمة فيه حتى آخر الكلمات؛ فتمنيت، مع هذه الحالة، لو يتفتّح ذلك المكنونُ في تلك الكتل للقارئ عبر عناوين فرعية، فيسهُل التناول.. وكان أن فعلت[١٤].

وقد كان المؤلفُ متقناً توزيع مادّته على فصول كتابه فصلاً فصلاً، داعما ذلك بمرجعيّة فائقة، غُصَّتْ فيها الحواشي بالمصادر والمراجع، وإنْ قَلَّ ما يعرض فيها - في الحواشي - من رأيٍ يرتئيه[١٥].

١٥- لو أنّ أجدادهم لم يطردوا أجدادنا:

وبعد..

حضارةٌ أقامها الأجداد، في تلك الديار، حتى إنهم قاربوا بها الحضارة في عواصم الإمبراطورية العربية في مشرق الأرض، دمشق وبغداد والقاهرة. ولعلّ الطاهري، المقيم في إشبيلية، لم يجد كبيرَ عناء في الوقوف على مفردات هذه الحضارة الجميلة وفي لملمة لُقاها الغالية، فأدرجها في هذا السِّفْر النفيس، فذكّرَ، وهو في تذكيره قد "أدْمَعَ" العيونَ عبرات فرحٍ وحزن، وذكر تذكيراً يُفيد كثيراً في الحفاظَ على "فردوس" آخر نوشك أن نفقده.

وفيما يُسمّى اليوم "حوار الحضارات"، يحقّ لنا أن نتساءل: لماذا تريد حضارةٌ أن تغتالَ حضارةً سبقت؟ نفهم أن تقاوم أمّةٌ غزاةً مدمّرين، ولكن.. أن تعمد أمةٌ إلى أن تُلغي، أن تجتثّ، تستأصل، حضارةَ أمّةٍ أخرى قد توطّنت ردحاً من زمن؟!

ذات يوم من ربيع العام ١٩٨٩، وأنا في مدينة "طرطوس" السورية، أشارك في المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب، قلت للمستعربَين الإسبانيّين الشابَّين: أنداليثيو لوثانو كامارا وزوجته ماريّة أنجليس نافارّو، من المشاركين في هذا المؤتمر، ونحن في "عبّارة" تطوف بنا حول "جزيرة أرواد" الصغيرة.. قلت بحزنٍ قد اختزنته مئاتٌ من السنين:

"طيِّب، ما ضرَّ لو أنّ الملَكين الكاثوليكيَّين، فرديناد وإيزابيلا، المنتصرَين على غرناطة، تركا المسلمين أقلّيّةً تعيش بينهم في أمان، تسهم - بثقافتها وعَراقتها - في بناء الدولة الجديدة، إسبانيا؟ وذلك ما فعله الفاتحون العرب يوم دخلوا البلاد، فلم يُرغموا أهلَها على تغيير دينهم، وتركوا لهم لغتهم، وأسقفهم الذي يعقد زيجاتهم، وقاضيَهم الذي يَفضّ منازعاتهم؟..".

لم أكن أتوقع أن أجد عندهما لتساؤلي جوابا!

١٦- الحبّ في القلب، وعلى الشّفاه الأغنيات:

بالأمس القريب، تسلّمت رسالةً من مدريد، خطّها شاعرٌ إسبانيٌّ قد درس العربية في بلده، وتفتح وعيُه على القِيم التي تنطق بها آثار الأندلسِ، فازداد حبّاً بالعربية، وبالناطقين بها، وبالمتذكرين أمجادَها، هو "فرناندو دا أغريدا بوريّو".

ولأنّ "الوادي الكبير" (النهر الذي يجري من قرطبة إلى إشبيلية، فالبحر المحيط)، قد تغنّت به مؤخرا شاعرة إسبانية معاصرة، هي "ماريّة ريّس فونتيس"، ونشرت قصائدها المؤثرة في كتاب حمل عنوان "مأثورات الوادي الكبير"[١٦]، فإنّ صديقي الشاعر "فرناندو دا أغريدا بوريّو، حين زار هذا النهر في إشبيلية قادما من مدريد، رآه نهرا آخر موحيا، وذلك بفضل العشق الكبير الذي عبّرت عنه الشاعرة للوادي الكبير[١٧]. وهو يتذكر، في قصيدة له أخرى، حبَّ الشاعرة السورية الراحلة، سلمى الحفار الكزبري، لإسبانيا ولمدريد خاصة، حيث كان تكريمها يوماً، فيزداد حبّاً لمدريد، وتجوالاً في شوارعها، وتغنّياً بقصائد له تضجّ فيها العاطفة وتسمو المشاعر إلى ذروة من الصفاء[١٨].

١٧- كيف يمكن للمرء أن يُحارب نفسه؟!

ولنذكر، في الختام، أنّ الكاتب الإسباني "أنطونيو غالا"، المُتيَّمَ بحبِّ الأندلس، مازال يُردِّد أنه كلما همّ بكتابة مؤلَّف جديد حول الحضارة العربية، فإنه يكتشف حقائق جديدة مثيرة.. يقول:

"فأجمل المعاني والأشياء هي من الحضارة العربية، بل إنّ أجمل المهن وأغربها، وكذلك ميدان تنظيم الإدارة، والجيوش، والفلاحة، والطبّ، والاقتصاد، وتصنيف الألوان والأحجار الكريمة والمهن المتواضعة.. كلّ هذه الأشياء، التي نفخر بها نحن اليوم في إسبانيا، تأتي وتنحدر من اللغة العربية. وهذا لم يحدث من باب المصادفة أو الاعتباط، فالعرب أقاموا في هذه الديار زهاء ثمانية قرون، وظللنا نحاربهم ثمانية قرون لإخراجهم وطردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية، فكيف يمكن للمرء أن يُحارب نفسه؟ ذلك أنّ الإسلام كان قد تغلغل في روح كلّ إسباني، فمن دون إسلام لا يمكن فهم إسبانيا، ولا أيّ شيء إسباني، بل لا يمكننا أن نفهم حتى اللغة الإسبانية ذاتها، لأنها لغة ثنائيّة، فأصلها عربي بقدر ما هو لاتيني".

١٨- "الأندلس في الذاكرة العربية":

عايشت هذا الكتابَ مدة، فَلَفَتَني ذلك إلى ما كنت كتبت عن الأندلس على مدى ثلاثين عاماً، من الدراسات والبحوث، وحَفَزَني إلى أن أبادر إلى جمعها في سفر يأتي الكتابَ الثالث في هذه السلسلة، أسميَه: "الأندلس في الذاكرة العربية".

---

(١) ما فتئت "مُوَرِّثاتٌ" (جينات) عربيةٌ تتبدّى في بعض الناس في إسبانيا، ولعلّ منهم الشاعر "لوركا"، ولعلّ أحدثهم الكاتب المعاصر "خوان غويتسولو" الذي يعلن بملء فيه أنّ خروج العرب من إسبانيا كان كارثةً حضارية أدّت إلى فقرٍ ثقافيّ وحضاريّ في بلاده.

(٢) محرقةٌ، مجزرة، لا يُضاهيها إلاّ تمكين القوات المحتلّة لبغداد في ربيع ٢٠٠٣، الرَّعاعَ من أن ينهبوا المتحفَ، الذي هو الأغنى والأعظم بين المتاحف التاريخية في العالم!

(٣) يُعارض بالأولى الشاعر الأندلسي ابن زيدون:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا

ويُعارض بالثانية الشاعر العباسيّ البحتري:

صِنْتُ نفسي عمّا يُدنّس نفسي
وترفَّعتُ عن ندى كلّ جِبسِ

ولشوقي في هذه القصيدة الأخيرة بيتٌ تضمّن معنى من أسمى معاني الشعور بالوطنية، رأيتهم يعتدّون به في احتفالية شوقي وحافظ بمكتبة الإسكندرية (ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٧):

وطني لو شُغِلتُ بالخُلْد عنه

نازعتْني إليه في الخُلْد نفسي!

(٤) المقيم في إشبيلية مُديراً لـ"مؤسسة الإدريسي المغربية – الإسبانية للبحث التاريخي والأثري والمعماري"؛ طُبع الكتاب في العام ١٩٩٣ (د.ن).

(٥) ذلك أني نشأت بحلب في حيّ شعبيّ يُسمّى "وراء الجامع"، يُتاخم "سوق المدينة" الذي يعمل فيه والدي، وقد ظللت أتردّد عليه منذ نعومة الأظفار، فأرى العامة من الناس كيف يتعاملون ويتصرّفون في الأسواق.

(٦) ... ومعبِّراً عن سروري بأن أجعل من هذا الكتاب الحلقةَ الثانية في سلسلة "الكتاب الأندلسي"، التي كنت بدأتها بكتاب نقلتُه الدار إلى العربية للمستشرق الإسباني خوان فِيرنيت (مُحرِّفاً العنوان: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"). ولم يَفُتْني أن أشير، في رسالتي، متمنّياً: "وما أشكّ في أنكم تعمّقتم كتابَ "الذيل والتكلمة في الموصول والصلة" لابن عبد الملك المراكشي، فإنّ فيه لُمَعاً مُغْنية في هذا المضمار"، وأعني الجوانب الاجتماعية وما يتّصل بها من الأحوال الاقتصادية!

(٧) حلّ بها، وهو في طريقه إلى حلب محاضراً فيها بصفتها عاصمةً للثقافة الإسلامية، في العام ٢٠٠٦ وفي بضعة الأشهر من العام الذي تلاه.

(٨) ممّا قام به الدكتور أحمد الطاهري من زيارات لمعالم دمشق، "سوق الحميدية" (أُنشئ في عهد السلطان عبد الحميد العثماني) و"جامع بني أمية الكبير" (في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك) و"ضريح صلاح الدين الأيوبي".. وما أحبّ أن أذكره، هنا، أني صحبتُه يوماً إلى ما سمّيتُه له سوق محي الدين"، هذا الذي يقع على مقربة دانية من بيتي، نصل إليه صاعدين مسافةً في سفح جبل قاسيون. والمفاجأة التي كنت أُخبّئها للطاهري، أني انعطفت به فجأةً، فاجتزنا عتبةَ جامع يقع في منتصف هذا السوق. وكانت فرحة الطاهري، المقرونةُ بالدهشة، عظيمةً، لحظة تبيّن أنه الآن في رحاب جامع الصوفيّ الأندلسيّ الأشهر "محي الدين بن عربي".

(٩) وتكملة الحكاية كما وردت في "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" – أنّ هذا الشاعرَ، البائسَ أبوه، قُدِّر له أن يُحسن نظم الشعر، فاتّفق أن امتدح أحد الكُبَراء، "فأطلق له ثلاثمئة دينار، فجاء بها إلى أبيه، وهو جالس في حانوته مُكِبٌّ على صنعته، فوضعها في حجره، وقال: خذها فاشتر بها زيتاً!".

(١٠) الهيج: هو التمرُّد، الثورة في المصطلح المعاصر، والكير: الزِّقّ من الجلد يُنفَخ به لتأجيج النيران.

(١١) ذكره المَقّري.. وبدايته أنّ رجلاً "استأذن الدخول على المعتمد، فدخل وهو في هيئة رثّة.." وقال ما قال في حديثٍ طويل، انتهى بأن شكره المعتمد ووصله".

(١٢) قوله أهل البادية، يعني: أهل الريف. اكتفى المؤلّف بهذه الإشارة! ولكن لأني أتعاطى، ابتداءً، القصَّ والرواية قبل اشتغالي بالشؤون الأندلسية، فإني أحبّ ألاّ أفوِّت على القارئ رواية هذه الحكاية الطريفة كلها، ممّا أورد المقري. وها هي ذي بتمامها:

أمر عبّاد بصلب [البازي الأشهب] على ممرّ أهل البادية لينظروا إليه. فبينما هو على خشبته على تلك الحال، إذ جاءت إليه زوجتُه وبناته، وجعلنَ يبكين حوله ويقلن: لمن تتركنا نضيع بعدك!

"وإذ ببدويٍّ على بغلٍ وتحته ثيابٌ وأسباب، فصاح عليه: يا سيدي، انظرْ في أي حالة أنا، ولي عندك حاجةٌ فيها فائدةٌ لي ولك!

"قال: وما هي؟

"قال: انظر إلى تلك البئر. لمّا أرهقني الشُّرَطُ رميتُ فيه مئة دينار، فعسى تحتال في إخراجها، وهذه زوجتي وبناتي يُمسكنَ بغلَك خلال ما تُخرجها!

"فعمد البدويّ إلى حبل، ودلّى نفسه في البئر، بعدما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها، فلما حصّل أسفل البئر قطعت زوجةُ السارق الحبل، وأخذت ما كان على البغل مع بناتها، وفرّت به..".

والتكملة، عند المقري، أنه "رُفِعَت هذه القصة إلى ابن عبّاد، فتعجّب منها، وأمر بإحضار البازي الأشهب، وقال له: كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الهَلَكة؟

"فقال له: يا سيدي! لو علمتَ قدر لذّتي في السرقة، خلّيت مُلْكَك واشتغلت بها!

"فلعنه وضحك منه، ثمّ قال له: إنْ سرّحتُك وأحسنت إليك وأجريت عليك رزقاً يُقيلك، أتَتوب من هذه الصنعة الذميمة؟

"فقال: يا مولاي! كيف لا أقبل التوبة وهي تُخلِّصني من القتل؟

"فعاهده، وقدّمه على رجال أنجاد، وصار من جملة حرّاس أحواز المدينة".

(١٣) أذكر إشارتي في أثناء الحديث، ونحن في بيتي، إلى أني أمتلك نسخةً من كتاب "المُقْنِع في الفلاحة" لابن حجّاج الإشبيلي (منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان ١٩٨٢) وكان الطاهري توّاقاً إلى اقتناء نسخة من هذا الكتاب. وقد عبّرت له عن أسفي لأنّي لا أعرف الآن موضع هذا الكتاب في أرفف مكتبتي، فقام يبحث عنه إلى أن رآه متوارياً، وقال ظافراً: هوذا!

كان هذا عشيّةَ عودته إلى إسبانيا، وصباح اليوم التالي بعثت بالكتاب إلى مَن يُصَوِّره بالفوتوكوبي. وقُبيل السفر قدّمت إليه الصورة على هيئة كتاب ذي غلاف.. فكانت فرحته بالحصول عليه لا يُعادلها إلاّ إعجابي بسرعة استدلاله على موضعه في خزائن الكتب التي تحيط بجدران البيت!

(١٤) لاحظت الباحثة الفاضلة الدكتورة نجوى عثمان، لدى مطالعتها الكتاب قُبيل دفعه إلى المطبعة، أنّ ما صيغت به هذه العناوين الفرعية من ديباجة أدبية، يُغاير ما يَرِد تحتها من مضمونٍ صِيغَ بأسلوبٍ علميّ بحت!

(١٥) أعترف بأنه زُيّنَ لي، والموضوعُ مكتنزٌ بالمعلومات، أن أدلي بـ"مداخلات" في الحواشي (وقد فعلت ذلك، كثيراً، في "فضل الأندلس على ثقافة الغرب")، وهممتُ، بأن حَبّرتُ مداخلتَين اثنتين، ووددتُ لو أمضي في ذلك، لولا شواغل في الحياة حالت، ونظرٌ بدأ.. وأنا رجلٌ قد بلغ الثمانين، فعدلت!

(١٦) الشاعرة ماريّة دو لوس ريّس فونتيس، وُلدت في إشبيلية عام ١٩٢٧. عملت أستاذةً في مجال العلوم التجارية والاقتصادية، وشغلت مناصب ثقافية هامّة، منها عضوية الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون في كلٍّ من قرطبة وسان تيلمو ومالقة. حازت كثيراً من الجوائز في مجال الشعر. ويُعدّ هذا الكتاب من أهمّ أعمالها.

(١٧) الشاعر فرناندو دا أغريدا بوريّو، وُلِدَ في مدريد عام ١٩٤٥، وعمل أستاذاً بجامعتها، ترجم إلى الإسبانية عدداً من الأعمال الأدبية العربية (مغربية وتونسية وعراقية). يشغل حاليّاً منصب المدير في مركز الأبحاث الأدبية في وكالة التعاون مع العالم العربي **AECI**.

(١٨) كتبت سلمى الحفار الكزبري (المولودة بدمشق عام ١٩٢٢) القصة والرواية، ونظمت الشعر باللغة الفرنسية، وكان أول أعمالها المنشورة "يوميات هالة" (دمشق ١٩٥٠). عُنيت باحثةً بالكاتبة اللبنانية مي زيادة ولها فيها غيرُ كتاب، أهمّها "مي أو مأساة النبوغ" (جزءان، بيروت ١٩٨٦). تنقلت بين عديد من العواصم، وأقامت في لبنان وفي إسبانيا. وافاها الأجل في بيروت يوم ١١ آب/ أغسطس ٢٠٠٦ (في آخر أيام حرب تموز)، ووُرِيت الثرى هناك. ويكون طيِّباً إذا عَرَفنا أنّ اسم العاصمة الإسبانية اليوم، مدريد، مستمدٌّ من العربية، وقد كان موقعُها في البدء حُصناً أمر بإنشائه أمير الأندلس "محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني" (القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي)، وكان الحصن يُمَدُّ بالماء النقيّ الطاهر بوساطة جوفيّة تسمّى "المجرى"، فسُمّي المكان (بإضافة اللاحقة اللفظية **ute** إلى الكلمة) بعد أن تحوّل إلى مدينة: "مجريط" بالعربية، وهي "مدريد" بالإسبانية اليوم.. وإلى مدريد، مجريط، يُنسب العالم الأندلسيّ "المَجْريطي" (مَسْلَمة بن أحمد، المتوفَى ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م).

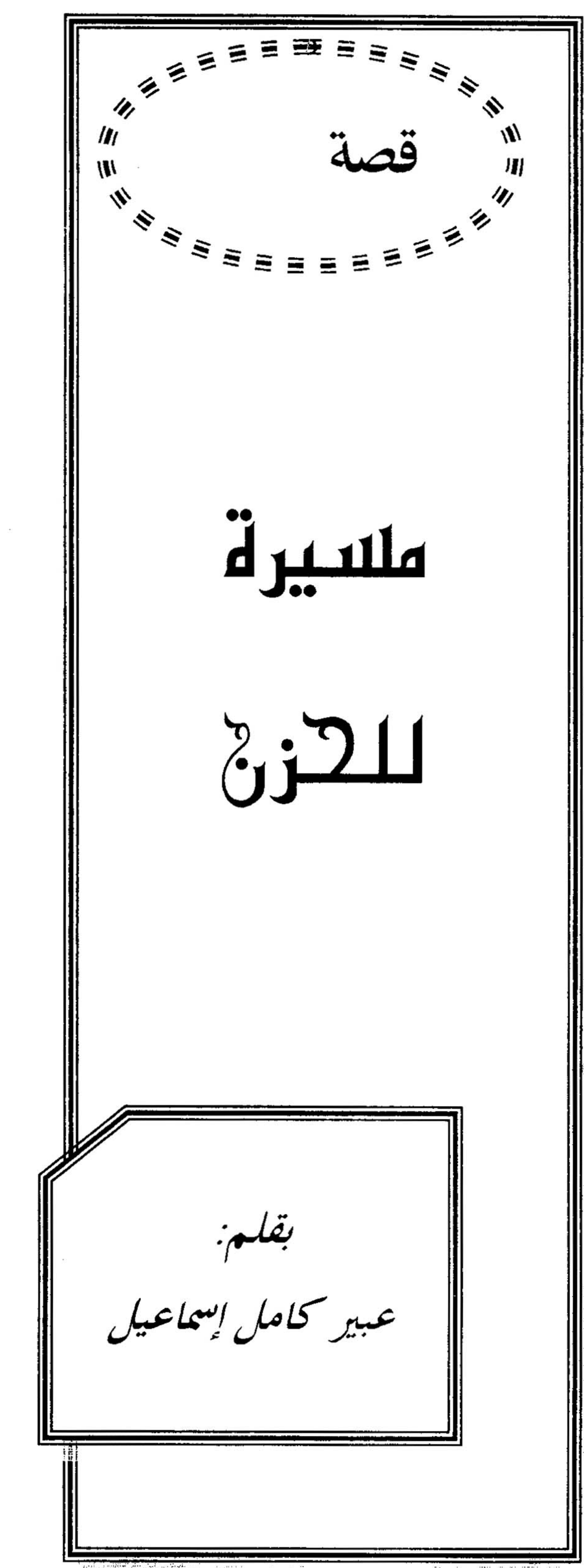



أُحِبُّكِ الحُبَّ

شعر: عصام شعبان

أُحِبُّـــكِ الحُـــبَّ لا تِيْهـــاً ولا خِبّـــا
يـــا جـــارَةَ الـنَّجْمِ عَنّـــي فاسْـأَلي الرَّكْبـــا
أُحِبُّـــكِ الحُـــبَّ حَـــدّاً لَسْـــتُ أُدْرِكُـــهُ
ومـــا كَفَـــرْتُ بِـــهِ دِيْنَـــاً ولا رَبّـــا
أُحِبُّـــكِ الحُـــبَّ لا مُسْـــتَعْظِماً ذَنْبـــاً
مِـــنَ الخَطايـــا ولا مُسْـــتَوجِباً ذَنْبـــا
هـــذا نَصِـــيْبي بِـــأَنْ أهـــوى مُعَـــذِّبَتي
إنِّـــي رَأَيْـــتُ عَـــذابي في الهَـــوى عَـــذْبا
فَصـــارَ حُسْـــنُكِ يـــا حَـــوْراءُ يَـــأمُرُني
حَتَّـــى أُطِيْـــعَ وَيَنْهَـــى حِيْنَمـــا يَـــأبى
فالحُـــبُّ في النّـــاسِ دِيْـــنٌ فـــازَ طَائِعُـــهُ
لأنَّ عِصْـــيانَهُ قَـــدْ يُوْجِـــبُ السَّـــبا
لا أَبْعَـــدَ اللهُ عَنِّـــي طَيْـــفَ آسِـــرَتي
ولا رُؤاهـــا إلى أنْ أُوسَـــدَ التُّرْبـــا



بعد الأهوال والمجازر التي ارتكبتها إسرائيل في فلسطين دعيت جماهير المواطنين للخروج في مسيرةٍ عفوية تجوب أنحاء المدينة، حمل الناس الأعلام واللافتاتِ المثقلة بالشعارات، وأحاطت كاميرات التصوير بالناس، وشبك بعض المسؤولين أيديهم ببعضها متزعّمين المسيرة وسالبين الأضواء.

بعض الشباب المتحمس رفع على الأكتاف وبقبضاتهم الغضة أخذوا يصفعون الهواء هادرين:

"بالروح بالدم نفديك يا شهيد

وإن هلهلت هلهلنالك صفينا البارود قبالك..

بالروح بالدم نفديك يا فلسطين"

وردّدت الجماهير الغاضبة الهتافات بقوة كأنها تنزل عن كاهلها ذنباً يقلق راحتها.

الضجيج والحماس اللذان يلهبان الأجواء لم يستطيعا أن يخرجا الآنسة خديجة من حالة تلبّستها منذ الصّباح، حيث صرخت في وجهٍ إحدى طالباتها:

- قليلة أدب وتهذيب، لا تنزلي رأسك تحت المقعد ثانية وأنا أشرح الدرس.

نظرت إليها الطالبة بعيونٍ زجاجية غير مبالية كأنها لم تسمع شيئاً، وبعدٍ دقائق أنزلت رأسها ثانية تحت المقعد، خرجت خديجة عن طورها واندفعت إليها، ثم شدّتها من يدها بقسوةٍ نحو الخارج فانفلتت فردة حذائها من قدمها وسقطت على الأرض أمام أعين الطالبات، كانت مهترئة ملفوفة بقطعةٍ من المطاط التي تحاول الصغيرة ربطها كل بضعِ دقائق حتى لا يخرج من قدمها فردة الحذاء تلك

كانت دليل براءة الطالبة من قلّة الأدب والتهذيب وطعنة لخديجة التي جفّ حلقها فأخذت تبحث عن ريقٍ تبتلعه، وسبباً لارتفاع أصوات الطالبات بالضحك، أفلتت يدَ الطالبة، حاولت أن تعتذر لطفولتها جلست الطالبة بكل هدوء وبالنظرة نفسها اللا مبالية سالت من عينيها دموعٌ صامتةٌ لا تزال تنزّ في حلق خديجة منذ الصّباح.

الهتافات تعلو تارةً وتنخفض تارةً أخرى، يقترب أحد المذيعين من المسؤول الذي أنهكه المشي الذي لم يتعوده ويطلب منه أن يوجّه خطاباً لأطفال فلسطين، فيجيب بصوتٍ لاهث وبعبارات محفوظة:

– الصمود لأطفالنا، والموت لإسرائيل، هؤلاء الأطفال أقوى من الرصاص ولن تذلّهم أو تخيفهم بنادق العدو ونحن بقلوبنا وعقولنا معهم..

كان خليل في الصفّ الذي يمشي وراءه، استطاعت أذناه أن تلتقطا نتفاً من المحاضرة الوطنية الأخلاقية التي ألقاها المسؤول أمام عدسات الكاميرات، أحسّ برغبة بالإقياء أو البصاق أو أيّ عملٍ يعلن فيه قرفه من الكلمات (النبيلة) التي تفوه بها هذا المتبجح. تذكر هول مفاجأته وأصدقاءه المخبريين عندما حلّلوا عينات من الحليب المجفف الذي استورده المسؤول قبل أشهر واكتشفوا أنها السبب بموت وإيذاء عديد من الأطفال.

كان المسؤول لا يزال يتحدث عن صمود أطفال فلسطين وعن وحشية الصهاينة بينما خليل يحاور نفسه في صمت كما اعتاد:

– ما الفرق بين طفل يقتله الإسرائيليون بدمٍ بارد وطفل يقتله مثل هذا بدمٍ فاسد، وبحركةٍ هندسية أجابت عيناه على السؤال حين كانتا ترسمان نجمةً سداسية على ظهر المسؤول المتحمس.

مرّت المسيرة بجانب الحديقة العامة، المتنفس الوحيد لأهالي المدينة وملتقى عشّاقها وعجائزها، منظر عاشقين يتناجيان أثار الشجن في قلب السيدة حليمة، افترت شفتاها عن ابتسامة حنين وادعة، هنا قبل عشرين عاماً كانا يلتقيان، كانت أشجار الحديقة تخضرّ أوراقها فينعقد زهر الحبّ بين قلبيهما، ليثمر زواجاً لم يدم طويلاً، حين زفّوا لها خبر استشهاده بسبب انفجار طائرته في مهمة تدريبية يومها أخفت الحزن الذي اعتصر قلبها وحاولت أن تفعل كما الأمهات اللواتي تسمع عنهن.. زغردت طويلاً وانزوت جرار دموعها في زوايا عينيها فكانت تسكبها على وسادة لياليها القاتمة..

بقي لها من زواج دام خمس سنوات ولدان وحفنة من الذكريات وجرحٌ لا يعرف الاندمال، من يومها انقلبت حياتها رأساً على عقب فقد تبدلت نظرات الاحترام في عيون كل من عرفتهم من أصدقاء إلى عيونٍ جائعة تعرّيها كلما التقت بأحدهم في أي شارع أو دكان، ونظرات المحبة في عيون الصديقات انقلبت إلى نظرات لؤمٍ وغيرة ورقابة مما

دفعها للانقطاع عن زيارتهنّ أو حتى السلام على أزواجهنّ، غمغمت حليمة:

- لا يعرف طعم الحزن ولا الظلم إلاّ من ذاقه.

لقد قتلوني منذ خمسة عشر عاماً، في الهند تحرق المرأة نفسها بالنار مع زوجها حين يقضي نحبه وهنا يقتلونها معه بنار عيونهم ولهب ألسنتهم.

سيوف كثيرة رفعت في وجهي من حينها: "لا تتبرجي، لا تلبسي الألوان الطفولية ولا ثياب المراهقين، لا تضحكي بصوت عالٍ، لا تتأخري خارج المنزل".. أسوأ سجنٍ ذلك الذي ليس له أسوار..

كلّ ذلك تحمّلته بصبر على أمل أن يعوّض الأبناء بنجاحاتهم خسارة العمر المهدور، ومنذ سنتين تقدم ابنها إلى امتحان شهادة الثانوية العامة وكان يحتاج درجاتٍ قليلة لينتسب إلى الفرع الجامعي الذي يرغب فيه، فتقدم بمفاضلة تخصّ أبناء الشهداء، لكنه عندما ذهب هو وأمّه لمعرفة النتيجة، فوجئا بالموظف يقول ببرود:

- لا يحقّ له التقدم بهذه المفاضلة، فالوالد شهيد من الدرجة الثانية، وهو ليس شهيد حرب..

مادت الأرض تحت قدميها وانسكبت دماء زوجها التي حسبت خمسة عشر عاماً وانسكبت معها دموعها الخائبة، أخذت الأوراق شكرت الموظف على خدماته، قالت بصوت منكسر:

- كن شاهداً، اليوم مات زوجي..

اقتربت المسيرة من نهايتها والهتافات لا تزال تمزّق الأجواء بخناجر الغضب لكنها تختنق على فم أحمد الذي خامره شعور بالغبن والألم عندما استعادت ذاكرته نظرات الشك التي يبادره بها الموظفون في كلّ مطارٍ يدخل إليه بمجرد قراءة البيانات على جواز السفر فلسطينيته كانت تهمة، واسمه كان تهمة، وسيبقى للسببين ذاتهما مداناً إلى أن تثبت براءته.

كان أحمد قبل خمسة وعشرين عاماً يتدرب ليوجّه البندقية إلى صدر عدوّ سلبه أرضه وليصبح شهيداً يلفّ بعلم بلاده واليوم تاهت بوصلة الأشياء، ولم يعد هناك شمالٌ مغناطيسي يحتكم إليه، ترك أحمد النضال عندما لم يعد يعرف من العدوّ وإلى أيّ صدرٍ يوجّه بندقيته، فاكتفى بالانزواء في بيتٍ صغيرٍ في طرف المخيم يشاهد التلفاز ومناظر الأشلاء والقتلى المصروعين بكافة الأيدي ولعب الأطفال الممزقة ويسكر حتى البكاء لينسى ما يحدث، وليتناسى يديه المكتوفتين المكبلتين بآلاف القيود.

انتهت المسيرة، تفرّق الناس وعادوا إلى أعمالهم، كان الهواء يحفظ الكثير من الأحاديث المختلفة تماماً عمّا هتفت به الألسن، والأرض غدت مكهربة بشحنات الغضب التي أفرغها المتظاهرون فيها، ورجعوا إلى بيوتهم أبطالاً بعد حرب كلامية ساحقة.

شخصٌ وحيدٌ لم يكترث للمسيرة التضامنية، ولم يرفع رأسه ليشاهد الناس أو يستمع لأصواتهم، فالأمر كلّه لا يعنيه ولا يهمّه، إنّه صبري ذو العشرة أعوام، والذي كان منشغلاً بمسح أحذية المارة وتلميعها بعناية.




حُبٌ قَدَرَهُ الرَّبُ

شعر: زياد الجزائري

أَحببتـــكِ في زَمَـــنِ اليَـــأسِ
المُتَـــراكمِ فـــوق الـــدَّرْبْ
وَبِـــلا تَخْطِـــيطٍ أو قَصْـــدٍ
وَعَرفُـــتُ بِـــأَنّ طَرِيْقـــي صَـــعْبْ
كُـــلُّ الأَشْـــوَاكِ تُطّـــوقُّني
وَأُصِـــرّ بِـــأَنَ أُصْـــغِيَ لِلقَلْـــبْ
إِذْ يُقْنِعُنِـــي أَنّـــكِ قَـــدَري
وَيَقُـــولُ لِـــيَ استَسْـــلِمْ للحُـــبْ
أَحْبَبْتُـــكِ رُغْـــمَ ظُـــروف لا تَمْـــنَحُني
إحْسَاسَـــاً إلا بـــالكربْ
فَحيَـــاتيَ أشَـــبَه بالصَّـــحْرا
وَهَـــواكِ لِقَلْـــبي مَـــاءٌ عَـــذْبْ
أَحْبَبْتُـــكِ وَالحُـــبَّ (حَشْـــيشٌ)
مَمْنُـــوعٌ وَالعَاشِـــقُ في رُعْـــبْ
كَـــمْ يَكْـــتُم في الصّـــدْرِ حَنِيْنَـــاً
وَيُـــواري حُرقَتَـــهُ في جُـــبْ







حُبَــــاً يَتَسَـــــامَى كَصَـــــلاةٍ
وَنَسِـــيمٍ فَـــوْقَ الـــوَرْدِ يَهُـــبّ
وَجعلتُـــــكِ مِصْـــبَاحِيَ لِـــيْلاً
وَرَأَيْتُــــكِ شَمْسِـــي عِنْـــدَ الغَـــرْبْ
وَلَمَحْتُـــكِ مِـــن بَـــيْنِ غُيُـــومِي
قَمَـــراً يَتَـــأَلَّقُ بَـــيْنَ السُّـــحْبْ
أَحْبَبْتُـــكِ كالنّاسِـــكِ سَـــحَرَاً
يَبْتَهِـــلُ وَدَمْـــعَ المَـــاذا يَصُـــبْ
لَـــمْ أَعْلَـــمْ أَطْهَـــرَ مِـــنْ حُبِّـــي
يَكفِـــيْنِي مِنْـــكِ دَوَامُ القُـــرْبْ
أَهْـــرُبُ مِـــنْ وَحْشَـــةِ أَيّـــامِيْ
مِـــنْ بَـــرْدٍ يَسْـــحَقُنِي في اللُّـــبْ
مِـــنْ جُـــوعٍ رُوحِـــيِّ مُـــرٍّ
كَـــمْ يُشْـــعِلْ بَـــيْن ضُـــلوعِيَ حَـــرْبْ
لِتَبُـــثَّ عُيُـــونِيَ مَـــا أُخْفِـــي
لِعُيُـــونٍ كَـــمْ تَخْتَـــزِنُ الحُـــبْ
أَحْبَبْتُـــكِ مِـــنْ دُونِ قَـــرَارٍ
أَوْ تَصْـــرِيحٍ يُعْطَـــى لِلْقَلْـــبْ
وَ بِرُغْمِـــيَ لَـــمْ أَخْتَـــرْ أَبَـــداً
هَـــذا أمـــرٌ قَـــدَّرَهُ الـــرَّبْ




الدكتور كاظم نجيب الداغستاني

١٨٩٨ - ١٩٨٥

بقلم:
يوسف عبد الأحد

أديب وباحث وروائي، ولد بدمشق من أب داغستاني الأصل والمنشأ، وأم سورية.

تلقى دراسته الابتدائية في الكلية الشرقية بزحلة لبنان ثم عاد إلى دمشق والتحق بالتجهيز وتلقى علومه الثانوية، ثم في مدرسة تعنايل الزراعية في البقاع بلبنان.

درس الحقوق في الجامعة السورية ونال شهادة الليسانس عام ١٩٣٤ ثم سافر إلى فرنسا والتحق بجامعة باريس عام ١٩٢٨ ونال شهادة الدبلوم في الدروس العليا، ثم درس علم الاجتماع ونال شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية عام ١٩٣٢ برتبة مشرّف جداً وكان عنوان أطروحته بالفرنسية حول (العائلة المسلمة/ المعاصرة في سوريا) وقد نالت إعجاب الهيئة الفاحصة وطبعتها طباعة فاخرة وتعتبر من أهم المراجع لطلاب علم الاجتماع.

قبل سفره إلى فرنسا عمل كاتباً في الديوان ثم مفتشاً في ديوان مجلس الوزراء عندما تألفت أول حكومة عربية في سورية عام ١٩٢٠.

عاد من باريس وعين قائمقام في معرة النعمان عام ١٩٨٣ وخلال عمله أدخل الكهرباء إلى المعرّة لأوّل مرّة وجدّد ضريح أبي العلاء المعري واستمر في عمله حتى عام ١٩٤٠.

وفي عام ١٩٣٣ أسس مع الأدباء خليل مردم بك (١٨٩٥ – ١٩٥٩) وجميل صليبا (١٩٢٠ – ١٩٧٦) وكامل عياد (١٩٠١ – ١٩٨٦) مجلة الثقافة وصدر العدد الأول منها

في ٥ نيسان ١٩٣٣ وتوقفت في ١٥ حزيران ١٩٣٤ وصدر منها عشرة أعداد وقامت وزارة الثقافة مؤخراً بإعادة طبعها في مجلد واحد.

تزوج عام ١٩٣٥ من السيدة إنعام عزة العظم ورزق منها ولداً واحداً عام ١٩٤٠ هو الدكتور نجيب الداغستاني.

وفي عام ١٩٤٢ عين محافظاً بالوكالة في حوران ثم أعيد إلى دمشق وعيّن مفتشاً إدارياً في وزارة الداخلية عام ١٩٤١.

أوفد إلى مصر لتمثيل سورية في لجنة الجنسيات والجوازات في الجامعة العربية عام ١٩٤٦.

أحيل على التقاعد عام ١٩٥٢ بناءً على طلبه. وعمل بالمحاماة اثنتي عشرة سنة ثم انصرف إلى هوايته في الكتابة والأدب وبدأ بنشر مقالاته في مجلة الميزان التي أصدرها أحمد شاكر الكرمي ثم في مجلات المعرفة وجيش الشعب والمحامون والموقف الأدبي.

صدر كتابه الأول (عاشها كلها) عن دار الأندلس في بيروت عام ١٩٦٩ الذي أرّخ فيه لذكرياته وأحداث حياته ونال هذا الكتاب إعجاب طائفة من الأدباء منهم شفيق جبري وسامي الكيالي وسلمى الحفار الكزبري وعيسى فتوح ومها العطار وجمال الفرا وشاكر مصطفى.

قال عبد المعين الملوحي عنه:

"إن أقل ما يقال في هذا الكتاب إنه حبّب إلينا الحياة وتمنينا أن نعيشها كلها كما عاشها كلها".

أما كتابه الثاني (حكاية البيت الشامي الكبير) فقد صدر بدمشق عام ١٩٧٢ على نفقته وقد أثار هذا الكتاب ضجّة وتعليقات متعددة وهو يمثل صورة حية لحياة أسرة مترفة إقطاعية كما صور فيه الحياة الدمشقية المختلفة وبرهن على حبه لدمشق وتعلقه العميق بها.

أحبّ كاظم الداغستاني اللغة العربية وتعمّق في دراستها وساعده على ذلك صديقه الشاعر خير الدين الزركلي كذلك كانت تربطه صداقة حميمة بالأدباء خليل مردم بك وجميل صليبا وكامل عياد.

كان يدعو إلى إعطاء المرأة حريتها وحقوقها وتحريرها من القيود العقيمة.

تجدر الإشارة إلى أنه حثّ ابنة اخته الأديبة إلفة الإدلبي وشجعها على المطالعة والكتابة فتابعت المسيرة وأصبحت من الأديبات المرموقات.

وافته المنية في السادس والعشرين من أيلول ١٩٨٥ ودفن في دمشق.

مؤلفاته

١- الأسرة المسلمة المعاصرة في سورية - بالفرنسية - أطروحة نال بها شهادة الدكتوراه عام ١٩٣٣ من فرنسا.

٢- عاشها كلها - بيروت - دار الأندلس ١٩٦٩.

٣- حكاية البيت الشامي الكبير - دمشق - مطبعة ألف باء ١٩٧٢.

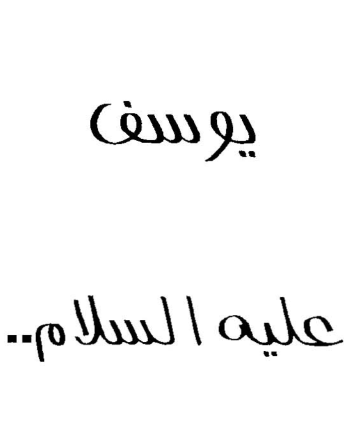



الحبيب الثاني..

شعر: حسن عدنان قداح

سل كل واحدة أنِستُ بودها
أسميتها حب الحبيب الأوّل
ونزعت من كبدي إليها قطعةً
كي تستدلّ بطعم ما لم يؤكل
قسّمتُ قلبي للجمال منازلاً
فاخترْ حبيبي أيَّ بيتٍ وانزلِ
أجّرت قلبي للذين أحبهم
لم يملكوه كأنه لم يؤهلِ
مستأجرٌ أرمي به لو خانني
سهل النوى ممن تملّك منزلي
فإذا نزلت بمنزل سكّانه
أهل الجفاء وكان أول منزلِ
ستظل نعمةُ ربنا نسيانه
وطموح نفسك لو رزقت بأفضلِ
مادمت أهواه سيبقى أوّلاً
حتى إذا قطع الوصال بمنجلِ
رقماً سيمسي بعد ألف نائياً
ألقي به وكأنه لم يوصلِ
نقل فؤادك حيث شئت ولا تخف
واترك فؤادك للحبيب المقبلِ
لو لم يكن ثنىً وثلثَ في الهوى
لا لم يقل كان الهوى للأولِ



يوسف عليه السلام.. مفسر للأحلام

بقلم الدكتور:
مصطفى العدوي

خلبت الأحلام لب الإنسان في كل العصور، وحاول كل علم من العلوم، وكل عالم من العلماء تفسير وتحليل هذه الأخيلة والصور، التي ما إن ننام حتى تقفز إلى مسرح النفس معبّرة عن نفسها، إلاّ أنها بدت متناقضة ومضطربة، ويشوبها الغموض والإبهام، ولا رابط يربطها ولا جامع ينسجها في كل موحد ومتناسق، تحقق لها التناغم والانسجام، إلى أن جاءت العصور الحاضر فبدأ العلماء يدركون الكثير من هذه الظاهرة الملغزة، وبرغم الجهود العظيمة المبذولة لدراسة هذه الظاهرة الهامة، وتوصل العديد من العلماء والباحثين إلى بعض مفاتيح حل لغز الحلم، إلاّ أنهم، بوسائلهم الحديثة، وأدواتهم الدقيقة، ومناهجهم المضبوطة، لا يزيدون عما قدمه منذ أكثر من أربع عشر قرناً، في القرآن الكريم، يوسف عليه السلام، في سورة يوسف (ع) ، حول ما سماه القرآن الكريم "تأويل الأحاديث" تارة، وتعبير "الرؤيا" تارة أخرى، كيف..؟ لنرى ذلك.. إن كل الآيات الواردة لاحقاً، فهي من سورة يوسف ولتفسير الألفاظ الصعبة استعنا بتفسير الجلالين.

قال تعالى: "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"

إذاً يرى يوسف (ع) هذا الحلم، ويطلب من أبيه يعقوب (ع) أن يفسر له مضمون هذا الحلم، وقد أدرك الأب معنى هذا الحلم، ولكنه يجيبه : "قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين" وتنطوي هذه

الإجابة على أن الأب فهم مغزى ومحتوى الحلم، لذا سارع لتحذيره من مغبة سرده على إخوته، فهل معنى ذلك أن الجميع من يوسف (ع) وأبيه يعقوب (ع) وأبنائه يدركون ما يذهب إليه هذا المنام. هذا على الأقل ما يبدو من سياق المحاورة، "وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث.."

فيورد تفسير الجلالين: "يختارك ربك ويعلمك تعبير وتفسير الرؤيا" وهنا تؤكد الآية بأن الله سبحانه وتعالى علّم يوسف (ع) واختاره وميزه ليكون الأفضل في تفسير الأحلام وتحليل الرؤى وفهم مقاصد الحديث، وإدراك خفايا الأمور.

"لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين" ويشرح التفسير "لقد كان في خبر يوسف وإخوته أحد عشر من العبر" ولكّن مضمون حلم يوسف (ع) قد اتضح الآن، بعد أن علمنا أن له أحد عشر أخاً وهم اللذين ظهروا في حلمه بالكواكب الأحد عشر، ولم يبق أمامنا إلاّ أن نفسر رمزي الشمس والقمر، وهما الأب والأم على التوالي، فيصبح جوهر الحلم أنه في يوم من الأيام سينال يوسف (ع) مكانة ومجداً رفيعاً بحيث أنه حتى أهله سيحتاجون إليه حاجة ماسة، وسوف يقدمون له الطاعة والاحترام والسجود.

"ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إن نراك من المحسنين" .

ويقول التفسير: والفتيان هما غلامان للملك أحدهما ساقيه والآخر صاحب طعامه، فرأياه يعبر الرؤيا فقالا لنخبّرنه بتأويل (أحلامنا) بتعبيره (أي بتفسيره) ، والمقصود أنه علم في بيان مقاصد الأحلام.

"قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.." أي يوسف (ع) لهما مخبراً أنه عالم بتعبير الرؤيا في منامهما قبل أن يأتيهما صحته في اليقظة، "يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان" . وهذا هو تحليل وتفسير أحلامكما وما سوف تصيران إليه، فيما إذا اصدقتماني القول، أما الساقي فيخرج بعد ثلاث ماذا..! ربما كانت ثلاث سنوات، فيسقي سيده (ملكه) خمراً على عادته، وأما الآخر فيخرج بعد ثلاث سنوات أيضاً، فتأكل الطير من رأسه بعد أن يُعاقب بالصلب، وطلب يوسف (ع) من الذي أيقن بالنجاة أن يذكره عند سيده (الملك) عندما يحين موعد خروجه من السجن، وعندما أُفرج عن هذا الأخير أنساه الشيطان ذكر يوسف (ع) عند مولاه، فمكث في السجن بضع سنين (قيل سبعاً وقيل اثنتي عشرة سنة) .

"وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني من رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون" .

والملك هو ملك مصر الريان بن الوليد الذي رأى (حلم) البقرات السبع السمان يبتلعن البقرات السبع العجاف وسبع سنبلات خضر وأخر سبع سنبلات يابسات قد التوت على الخضر وعلت عليها.

وبدا أن الملك مأخوذاً بهذه الرؤيا (المنام) فطفق يستشير الملأ من حاشيته تفسير هذه الرؤى..؟

ولكنهم أجابوا: إن هي إلاّ أضغاث (أخلاط) أحلام، وما هم بتأويل الأحلام بعالمين.

حينئذ تذكر الساقي من بين جموع الحاشية، فأخبر الملك بقدرة يوسف (ع) تأويل الأحاديث، فأرسله الملك إليه في السجن ليفسر حلمه فأجاب: "قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلاً مما تأكلون".

"ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلاّ قليلاً مما تحصنون" ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون" .

والتفسير أو التأويل الواضح الذي قدمه يوسف (ع) لرسول الملك وهو: أن ازرعوا سبع سنين دأباً متتابعة وهي رمز السبع السمان، فما حصدتم فذروه أي اتركوه في سنبله لئلا يفسد إلاّ قليلاً مما تأكلون فادرسوه.

ثم يأتي بعد ذلك السبع المجدبات، عام فيه يغاث الناس بالمطر وفيه يعصرون الأعناب وغيرها الخصبة.

ولعله قد اتضح هنا محتوى رؤية (حلم الملك) المصري المتوقد خوفاً وخشية على مواسم أرضه، وتعاقب فترات الجدب والخصب مما يثير القلق على مستقبل بلاده.

أما البقرات السبع العجاف فتمثل سبع من سنوات القحط، والسبع بقرات السمان ترمز إلى سبع سنوات من الغلال والخصوبة.

ولتحليل وتأويل هذا الحلم احتوى على إشارات رمزية قُدمت فيما بين صور البقرات، وهي السنابل الخضر واليابسات لتحدث تكرار الرمزية، وتبين سبل فك شفرات الحلم، تلك المتضمنة عبر مجموعة من مفاتيح الحل لهذا الحلم. ويتم ذلك من خلال استبدال الصور الحلمية المرمزة لما تهدف إليه من معنى أو قصد أو غاية. ولعل أغلب المشتغلين بالحقل السيكولوجي على دراية بهذه الآلية النفسية.

ومن هذا المنطلق يتجلى إعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الحقائق السيكولوجية والقوانين النفسية العميقة التي يجاهد علماء النفس ويكابدون العنت في اكتشافها وإظهارها للناس. إذ بها منسابة برشاقة فائقة، بلفظ معجز، ومعنى موجز، وتأويل ملغز. تنثال انثيالاً، بجرس صداح وزند قداح، بطلاوة وحلاوة لا مثيل لها من قول بشر.

والآن ومع أحدث التطورات في العلوم السيكولوجية، لو أخذنا هذا الحلم المذكور آنفاً وطلبنا من أعظم عباقرة علم النفس تأويله، لما أولوه بأفضل مما فعل يوسف (ع) .

ويشهد فرويد بنفسه، مؤلف "تفسير الأحلام" هذه الحلية النفسية عام ١٩٠٠ على ذلك، وكان فرويد يتمنى دائماً أن يصل إلى قدرة يوسف (ع) في تأويل الأحلام والرؤى والأحاديث، ويطرب زهواً عندما يصفه تلاميذه بأنه يحاول التشبه بيوسف (ع) في هذا الإطار، وستبقى ظاهرة الأحلام معقدة حتى يقيض الله لها نفر من العلماء الراسخين اللذين يناط بهم دفع عجلة العلم والتقدم نحو السمو المعرفي والازدهار الحضاري.